أدب الإمام على
فى
ميزان النقد" اتهامات وردود"

الدكتور

محمد سيد أحمد أحمد

الأستاذ المساعد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بدمياط الجديدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، كرم الإنسان بالفكر، وميزه بالعقل، وأقام حياته على الخطاب، فهو الرابطة الوثقى بين البشر من أقصى الأرض إلى أقصاها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب لسانا، وأبينهم منطقا، وأوضحهم خطابا.

وبعد .....

فالشعر هو الميدان الذى تبرز فيه الأمم أعمالها، وتسجل أمجادها ونكباتها، وتصور فيه أفراحها وأتراحها، تطور حياتها وثقافتها، وفيه يعبر الشاعر عن دخيلته وذاته، كوامنه وأسراره، مشاعره وعواطفه، أحلامه وأمانيه، ويدل به على شخصيته وسير حياته، فهو السجل الذى يحوى ذخائر الحياة وجلائل الأعمال.

وإذا اتجهنا إلى العصر الإسلامى لندرس واحدا من شعرائه، ونتعرف على طبيعة شعره، وما وجه إلى أدبه، فكان على بن أبى طالب، الذى دارت حوله الشبهات ، واتهم عمله بالنقص، والانتحال عليه.

وإذا تصفحنا ديوان الإمام على، وجدناه نموذجا فريدا عن أقرانه من الشعراء، فقد تفرد عنهم بميزتين واضحتين:ـ

١- أنه لم ينهج نهج شعراء عصره فى بناء القصيدة، وإخراجها على النمط الذى غلب عليها فى العصر الجاهلى.

٢- أنه يمثل الشاعر الذى اعتمد فى شاعريته على فطرته، فتجربته لم تعتمد على التنقيح والتجويد، شأنه شأن الشعراء فى مطولاتهم وفى بناء قصائدهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفى ديوان الإمام على تجد النموذج الإسلامى، الذى يجسد كل ما يدعو إلى الأخلاق والحكمة، وقد عمد فيه إلى إبراز القيم الإسلامية متخذا من القرآن والسنة النموذج الواضح، فأكسب شعره النضج، فذاع وانتشر، وتناقلته ألسنة العامة والخاصة.

وجاء شعر على بن أبى طالب طبعياً غير متكلف، وإن غلبت على شعره نزعة عقلية تمثلت فى استخدامه العقل والمنطق من خلال الحجج والبراهين التى يسوقها، حتى تقنع نفسك، ولا يجد الشك إليها سبيلا.

وقد زعم البعض أن هذا الشعر من صنع الشريف الرضى، جمعه ووضعه ونسبه إلى الإمام على فى زمن متأخر عن حياته، فهل رأى الشريف الرضى ضعفا فى الإمام وعجزا، فصنع ما صنع ونسبه إليه؟

ولو أنك أنعمت النظر فى تلك الفرية، وجدت إمكانية دفعها من ناحيتن:

١- أن قول الشعر لم يكن ليتأب على الإمام، أو يصعب عليه مع موهبته خاصة أنه كان يعيش وسط قوم، يكاد يجمع المؤرخون على كثرة شعرائهم، وفرط عددهم، فقد روى فى تاريخ الخلفاء للسيوطى فى الفصل الخاص بالحديث عن الإمام على: أن أبا بكر كان يقول الشعر، وأن عمر كان يقول الشعر، وكان عثمان يقول الشعر، وكان على أشعر من الثلاثة.

٢- ما عرف عن قوة وجزالة أسلوب الشريف الرضى فى شعره، والإبداع والإغراب اللذان يبعدان به عن هذا الادعاء وتلك الفرية.

ولكن هل يقال بهذا الدفاع: إن شعر الإمام على ليس بالقوة والجزالة التى تمنحه الحيوية والتدفق وإقبال القراء عليه؟

إن شعر الإمام إذا جاء على بعض العيوب، أو انتابته بعض الهنات

ات والرائات، فهذا لأنه لم يكن شاعرا، بقصر حياته- كغيره – على الشعر، وما يتبع ذلك من العناية، بالتنميق والتجويد والتحسين، ولذلك ب إلى ديوانه، ونظرت إلى عدد أبياته، وجدتها تقترب من الألف وهذا ليس بكثير إذا وازناه بشعر الشعراء الذين تفرغوا وقصروا هم على قول الشعر، مما يدل على أنه قد شغلته أمور أخرى كالدعوة، وأحوال المسلمين، وما ترتب عليه من متاعب ومشاق وأهوال أزمنه الدفاع عن الحق والعدل، وحماية أركان الدولة الإسلامية، وما من مصاعب داخلية زادت فى أعبائه وهمومه.

وقد يولد الإنسان خطيبا كما يولد شاعرا أو فنانا، وتلك الملكة فى القلب وشد انتباه السمع وهى وليدة الفطرة، لا تنمو وتؤتى ثمارها إلا ل والصقل والدربة والممارسة، فالخطابة إذا موهبة وفن معا، فالفطرة الاطلاع وثروة الألفاظ والعلم بالأصول الخطابية، لا تكفى فى تكوين الخطيب، لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة، بل لابد ها من المعاناة لكى ينمى مواهبه إن كانت فيه فطرتها، ويطب لعيوبه كان فيه عيوبها.

وقد تبقى ملكة الخطابة دفينة إن لم تتح الظروف لبعثها، وقد يظل الخطيب الموهوب خاملا مغمورا إذا لم يوجد أمامه الميدان الذى تتجلى فيه مواهبه، ويبرز فيه تفوقه، ويدل على ذاته ويعبر عن عصره وحياته.

ومن ثم فالخطابة سلاح المجتمع الإنسانى فى سلمه وحربه، وفى ه وغمه، وفى تعزيته ومواساته، وفى تهنئته بجميل مناسباته، فيجب أن س الخطيب بإحساس الجماعة ويشعر بشعورها، فيكون هذا التأثير الروحى أداة تأثير يستخدمه فى استفزاز مشاعرها أو تهدئة ثائرتها، وليملى عليها ما يريد من آراء، إذ أن هذا الإحساس المشترك بينهما يجعله قادرا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على إدارة ميولها وإصابة أهوائها، وهذه أول ثمرات الخطابة، ولها فوق ذلك الكثير، فهى التى تفض المشكلات، وتقطع الخصومات، وهى التى تهدىء النفوس الثائرة وتثير حماسة ذوى النفوس الفاترة، وترفع الحق وتخفض الباطل، وتقيم العدل وترد المظالم، وهى صوت المظلومين ولسان الهداية.

فلا يثير الحماسة فى قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه اعتقادا بصدقه، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان، وكما أن الماء الذى علا سطحه ينساب فى المجرى المنخفض، كذلك ذو العاطفة العالية هو الذى ينحدر من فيه الشعور ألفاظا، والعواطف عبارات وأساليب تلهب الحس وتوقظ النفس، فلابد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه، ليفيض عليهم، ويروى غلتهم، وإلا أحسوا بفتور نفسه فضاع أثر قوله.

وقد اتهمت الخطابة فى العصر الإسلامى بما قرره بعض المستشرقين فى هذا الميدان، من أنها انتقلت من طور السذاجة إلى القوة والترقى بفعل الآداب الأخرى وخصوصا الأدب اليونانى القديم، وتابعهم فى ذلك بعض باحثينا.

وبعد إحالة نظر وبحث تقرر أن ما زعمه هؤلاء المستشرقين ومن سار مسارهم لا يخرج عن المخطط الغربى المرسوم ، من تهوين شأن كل ما هو عربى ، وإقامة ما لا يمكن تهوين شأنه على أسس غير عربية، حتى يقر فى الأذهان ما يهدفون إليه من أن العربى لا يستطيع أن يجيد فى أى ميدان، فهو فى شتى ميادين الحياة إما قاصر ضعيف أو عالة على غيره مقلد.

وهذه دعوة قديمة ناصرتها فى العصر الحديث الحركات الاستعمارية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرى الكثير من باحثينا الذين شعروا بالضعف في الغربية وجرى وراءها فرأوا في كل ما هو غربي روعة لا يجدونها عندهم، فساروا وراءهم من غير بحث، ولو أنهم وقفوا برهة وفكروا في مصدر هذه الروعة التي يتسم بها عمل الغربي- علما كان أم أدبا- لعرفوا أن ذلك يرجع إلى ما أخذوه عن العلوم والآداب العربية، ولو أنهم تأملوا في تلك الخطابة موضع الاتهام في نظرهم، لرأوا أن أهم ما أثر في رقيها وعمل على تطويرها هو الإسلام بكتابه ومبادئه، وأما سوى ذلك فهي- إن وجد - مؤثرات جانبية ما كان لها أن تحدث مستقلة في الخطابة العربية هذا التأثير، وإنما ظهر أثرها حين أصبحت الخطابة متطورة ذات أصول وقواعد فنية.

وقد يلاحظ الدارس أن وجه الخطأ في هذا الاتهام قد نبع من الخلط أحيانا بين التأثير في الخطابة العربية ذاتها وبين التأثير في نقد الخطابة العربية، حيث يرى البعض أن العرب قد درسوا كتاب الخطابة لأرسطو ونحوه فيتوهم أن هذا هو السر في تطور الخطابة العربية.

والحق أن خطابة أرسطو لم يكن لها أثر في تطور الخطابة العربية بقدر ما كان لها من تأثير في توجيه أنظار الناقدين العرب إلى قوانين الخطابة، وإقامة نقد الخطابة على كثير من أصول الخطابة الأرسطية، وبنظرة إلى خطابة أرسطو التي اتهمت الخطابة العربية بتتبع أثرها والسير على منوالها، نجد أنها دراسة نقدية تعرض أصول النقد لفن الخطابة كما يراها أرسطو، وليست تطبيقا عمليا لهذا الفن، يضع أمام القارىء نماذج يحتذيها، ويتأثر بها، ويسير على منوالها ودربها.

ولقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الذروة من الفصاحة والبلاغة، إذ سرى في نفسه بيان القرآن بترغيبه وترهيبه، وبيان الرسول

بمواعظه وتشريعاتـــه وتسرب هذا البيان إلى نفسه، وأخذ بمجامع قلبه، وقد تولى والفتنة تموج بالناس، فالبعض يؤلب عليه أهل البصرة، والبعض يؤلب عليه أهل الشام، فانتقل بالخلافة إلى الكوفة، وهو فى أثناء ذلك كله كان يخطب واعظا حينا، وداعيا إلى جهاد خصومة حينا آخر، فقد كان خطيبا بارعا مفوها لا يشق له غبار، وطبعى أن تكثر خطبه فى حروب خصومه، فقد ظل أربع سنوات يجاهدهم، ويحث أصحابه على الجهاد معه، لوحدة الأمة ومنع تمزيق كلمتها وتحطيم كيانها.

وقد خلف خطبا كثيرة، نجد منها أطرافا فى البيان والتبيين، وعيون الأخبار، وتاريخ الطبرى، وما جاء فى تلك المصادر كاف لتصوير قدرته الخطابية، وإحسانه إحسانا كان يخلب لب سامعيه، ويؤثر فى نفوسهم.

وقد اقتضت ظروف البحث أن أقسمه إلى فصلين:

الفصل الأول: الشعر ويشمل المباحث الآتية:

المبحث الأول: ما وجه إليه من نقد والرد عليه.

وتحدثت فيه عن النقد الذى وجهه النقاد إلى الديوان، وفيه لم أتحزب ضد هؤلاء النقاد الذين تناولوا نتاجه، وأنها لوا عليه بالتجريح والتمزيق، فلا مجال فى ميدان الدراسات إلى المحاباه والتعصب إذا كان النقد موضوعيا، مدعوما بالأمثلة الدالة من نتاج الأديب، أما إذا كان النقد والتجريح غير موضوعيين، ويمكن الرد عليهما، فلا يعتبر هذا من قبيل المجاملة، أو الوقوع تحت تأثير شخصية البحث.

المبحث الثانى: ملامح شعره الدالة على ذاته وعصره.

وهو من جانب بيان لصحة نسبة الشعر إلى صاحبه، إذ كيف يمكن لغيرى، قد انتحل علىّ أو وضع لى أن يحسن التعبير عن ذاتى ويشرح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكيف له أن يرى عصرى بمثل رؤيتى؟ وكيف يتكلف نظرتى على أحداث عصرى؟

وهو من جانب آخر بيان لمعنى الشاعرية الحقة التى لا ينفصل فيها عن عالمه وواقعه الذى يعيش، فيكون أدبه منعزلا، أما هو فأديب غير منعزل، بل متفاعل مع واقعه ومندمج ، ومعبر عنه خير تعبير.

الفصل الثانى: الخطابة ويشمل المباحث الآتية:

المبحث الأول: الخطابة قبل الإسلام:

تحدثت فيه عن الحالة التى كانت عليها الخطابة فى العصر الجاهلى، فكانت تأتى فى المرتبة الثانية بعد الشعر الذى هو قبلتهم التى يقصدون فى كل المناسبات، ثم لما آل إلى ما كان العربى يأنف من الابتذال والترخص، عمد إلى الخطبة يتخذها أداة للتعبير ، ووسيلة يبوح بها عن مكنون وخلجات نفسه، ومن ثم اضطر إلى اللجوء إليها، فجاءت قاصرة عن مضارعة الشعر، ومن ثم فلا تلمح فيها ما تلمحه من رقى وتطور أصابها فى سائر العصور التالية، حين أصبحت فنا يعتمد عليه، ووسيلة للإذاعة والتعبير .

المبحث الثانى: أثر الإسلام فى الخطابة:

ويوضح كيف عمل الإسلام ببلاغته وحسن نظمه فى تطويرها وتغيير مسلكها، فوضع لها الأسس وأقام لها القواعد والأصول، وعدد أغراضها وفنونها، فتنوع مجال القول أمام الخطيب يعبر عن ذاته وكوامنه، وما يجول فى خاطره.

المبحث الثالث: الدراسة الموضوعية:

وفيه يتضح أن الإمام خاض بخطبه فى جميع المجالات ، وكان من المنظور فى تلك الفترة أن تكون جل خطبه تدور فى فلك التحميس

والتجهيز والدعوة إلى القتال، وبيان أهمية الوحدة، بيد أن الإمام لم ينس فى حومة الوغى واجباته، من دعوة الناس وإرشادهم وبيان ما ينبغى لهم وما ينبغى عليهم، وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم.

المبحث الرابع: الدراسة الفنية:

وفيه أبرزت ما أحدثه اختلاف عصور الخطباء وبيئتهم فى اختلاف أساليبهم فى التعبير، فوسم أسلوب كل عصر بما هو منتزع من حياة أصحابه، على الرغم مما حدث من تأثر وتأثير نتيجة تتابع حلقات التطور، ولولا ذلك لحدثت الهزة التى تفصم البناء عن أساسه وأصله.

ويظهر منها أيضا تنوع الصورة فى خطب الإمام على، وكيف تطورت وعبرت عن العصر، وكيف استلهم صورا فى خطبه وقعت بتأثره بالموروث.

وأخيرا كانت الخاتمة، وهى تحوى موجزا لأهم النتائج التى انتهى إليها البحث.

والله من وراء القصد

الفصل الأول: الشـــعر

ما وجه إليه من نقد والرد عليه

المبحث الأول: الطعون على ديوان الإمام علـــى بحـــق ودون وجـــه

توالت بعض الطعون على ديوان الإمام علـى بحـق ودون وجـه، وإذا نظرنا في تلك الطعون نرى هل كان أصحابها على صـواب أم هناك منها ما لا يقبل، لسهولة دفعه وتنحيته عن شعر الإمام علي، ومنها مالا يقره العقل، وهناك ما يقبله.

ولقد كان من المطاعن التي وجهت إليه نسبة هـذا الشـعر إليـه، لا من الا لتعلو مكانته وترتفع درجته، وبالطبع هو لم يكن في حاجة إلـى هذه النسبة، فمكانته في الإسلام لا تحتاج إلى شيء يرتفع به في العيـون، وترسخ مكانته في القلوب.

وهذا إدعاء إن كان فيه جانب من الصحة، وهو عدم احتياجه إلى ما يرفع درجته أو يعلي قدره ومنزلته، إلا أنه يحجر علـى الإمـام موهبـة منحها الله في تكوينه ضمن ما وضع من صفات، يجـب علـى المـرء استغلالها وتنميتها لتعلى مكانته، ويحقق ذاته، ويعبر عن نفسـه ومكنـون صدره.

إن علي ليس في ذلك بدعا من باقي صحابه رسول الله الذين مارسوا أعمالا وغلبت عليهم صفات رفعت درجـتهم فـي الإسـلام، كالفروسـية والشجاعة والصدق وغيرها فهل نقول بانتفاء تلك الصفات وعدم إثباتهـا، لأن مكانتهم في الإسلام لا تحتاج إلى ما يقويهـا، أو يرفـع بهـا درجـة صاحبها؟ أيحجر الإنسان على موهبته حتى لا يتهم بأنه كان في حاجة إليها ليعلي ذكره ويرفع شأنه ؟

---

١ - انظر ديوان الإمام علي تحقيق مركز البيان العلمي- ط: مكتبة الإيمان بالمنصورة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومما وجه إلى الإمام علي، ومن المآخذ والسقطات التي أنهموه بالوقوع فيها، وتنفي نسبة هذا الشعر إليه، ثلاثة أبيات مفردة من بحر الرجز في الديوان، وهي أبيات تعد أقرب إلى لغة الحوار العادي، فليست من الشعر لأنه فن معقد يحتاج إلى موهبة وملكة من أجل التجويد والإتيان بالصورة الفنية الجديدة الخلابة.

وهذه القرية تنفي الشاعرية عن كل الشعراء الذين لهم أبيات مفردة، فهم أقل فحولة وافتداراً ممن ليس لهم هذه الأبيات المفردة.

ثم أليس الإمام بما فعل ابن بيئته العربية الذي مازال يتمثل أحد مفرداتها، وينهج نهج شعرائها؟ هل تأثر هؤلاء النقاد بالنزعة الشعوبية في العصر العباسي التي قامت على تفضيل الأجناس الغير عربية على الجنس العربي ومنها أن عدوا عليها هذه المثلبة والنقص؟

ففي الأغاني، عند الجاحظ من المثالب التي أخذها العجم على العرب للتقليل من شأنهم ، وإعلاء شأن ومنزلة العجم عليهم، يقول:

"إنهم كانوا يعيرونهم بالأرجاز التي كان يرتحلونها عند المنح، وعند مجالاة الخصم وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة والمحاورة".

على أننا نقول:

إن الأصل في الشعر العربي هو البيت أو البيتين أو الثلاثة، يرسلها الشاعر ليعبر عن حاجة ألمت به، ولحظة شعورية خالجت نفسه، ففاضت بها احاسيسه ومشاعره واستدعى من مخزونه الثقافي والإبداعي ما يلتقي بهذه الأحاسيس، لتخرج صورا مقروءة ومحسوسة ومرئية ، تصادف مشاعرا متأججة أو نفوسا مكلومة فتؤثر فيها وتخالطها وتعبر عنها وعن دخيلته.

ولنتيجة لسنة الحركة وعدم الجمود، ولنتيجة مسايرة العصر والظروف

المحيطة بالإنسان كانت الحاجة باعثة على الانتقال إلى مرحلة القصيدة .

ولعل ما نحاول أن نؤكد به هذا، أن القصيدة فى ظل الأحكام النقدية التى كانت تصدر عن النقاد ابتداء من عصر ظهورها إلى عصر نضجها وتطورها كانت ترد إلى عناصرها ومكوناتها التى نشأت عليها، وقام عليها أساسها وارتفع به بناؤها، وهو البيت والبيتين، فالمفاضلات بين الشعراء كانت تقوم على أفضلية بيت قاله هذا الشاعر أو ذاك وعندما وضعت كتب الموازنات قامت على الموازنة بين البيت والأبيات اليسيرة، وعندما ظهرت نضبة السرقات فى الشعر كان منشؤها البيت، وعندما نقرأ فى المحاكاة الأدبية، إما نتيجة للتقليد أو امتلاء ذاكرة الشاعر الذى يحاكى بأشعار كثيرة على نفس الوزن الذى ينظم عليه، فتأتيه متزاحمة على خاطره فتتوارد المعانى وتتلاقى الخواطر، نجد أيضا معظمها قائما على البيت والبيتين فى القصيدة.

ولو ذهبنا إلى داوين الشعراء نعالج فيها هذه الناحية، نجد الشواهد طالة علينا فى أى درب سلكنا، وفى أى ديوان فتحنا.

انظر إلى قصيدة إبى تمام التى قالها فى فتح عمورية، نجده يقول فى البدء:

السيف أصدق أنباء من الكتب ∴ فى حده الحد بين الجد واللعب

ترى شاعرا ينتمى إلى مدرسة الإحياء فى العصر الحديث وهو شوقى يتمثل هذه المعانى ، فيقول فى مدح انتصار الترك:

الله أكبر كم فى الفتح من ∴ يا خالد الترك جدد خالد العرب

وحين يعبر شوقى عن لوعة الهوى، وشدة الصبابة والوجد، ويبرز موقفه من اللائمين لحالته التى أصبح عليها، يقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يالامى فى هواه والهوى قدر ∴ لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

نراه متمثلا فيها ومتلائما فى الخواطر- ومتواردا فى المعانى مع البوصيرى فى قوله:-

يالامى فى الهوى العذرى ∴ ملى إليك ولو انصفت لم تلم

ومتمثلا قول المتنبى:

ان كان سركم ما قال حاسدنا ∴ فما لجرح إذا أرضاكم الم

إذن فقد بدأ الشعر رجزا، عبر فيه الشاعر عما يريد فى البيت أو أكثر، ثم نتجت القصيدة بعد ذلك نتيجة سلة التطور والارتقاء.

ويتضح من خلال حكم هؤلاء على شعر الإمام على، أن الشاعر يجب أن يعمد إلى القصيدة يتخذها سبيلا إلى إعلاء شأنه وذيوع اسمه وخلود ذكره، فهى التى يجب أن يحتكم إليها عند المخاصمة، فهى المحببة إلى الشاعر إبداعا، وللنقاد فصلا وحكومة، ولكن أن يفكر الشاعر فى اتخاذ البيت أو الأبيات سبيلا للتعبير عن مشاعره وذاته، فهو الضعف المتمثل فى التعبير عن خاطره أو شاردة يصفها لذاتها دون أن يحاول وصف شىء غيرها، وهذا مظهر من مظاهر ضعف قدرة الشعراء الإبداعية، وقلة زادهم الفكرى وهذه النظرة تدل على أن صاحبها لم يحسن النظر فى أمور الشعراء، فهى لا تدل على استقراء صحيح للحركة الشعرية، وإنما هى قراءة متعجلة وازنت بين طريقين شعريين دون أن تأخذ بأسباب النقد وأسسه.

فالواقع الشعرى يقول: إن كثيرا من الشعراء المقصدين أجادوا وبرعوا فى استخدام البيت والأبيات براعتهم وجودتهم فى القصائد الطوال، بل أحيانا يكون استخدام البيت أو الأبيات دلالة على المهارة، فهى تملى

على الشاعر أن يعبر عما يحس ويشعر فى كثافة وعمق فى نطـاق هـذا الصدد، على العكس من القصيدة التى تتيح للشاعر حريـة التصـرف فـى التعبير عن فكرته، وأن يرشد عن مشاعره، ويوضح معانيه ويستوفيها.

وأين نحن من أبرع شعراء العصور الأدبية وفحولهـا المعـدودين، ابتداءا من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث؟ أين نحن من أبرع شعراء العصر العباسى ممن لهم فضل السبق فى ابتكار الصور وتوليد المعانى؟

إذا كان أبو نواس صاحب رؤية نظرية واتجاه شعرى عرف بقضية الحداثة، فإنه نظم البيت والأبيات اليسيرة، فهل يعتبر قصير الهمة الشعرية فى عروجه على هذا؟ هل ينتمى إلى ذوى المحدودية فى التعبير لو وصف صورة فى أبيات قليلة؟ أم أنه العجز والافتقار إلى الموهبة؟

إذن فليس معنى عروج الشعراء على البيت أو الأبيات والجنوح إليها، نقصاً فى شاعريتهم أو بيانا لضعفهم، فإذا كان كل شكل فنى ناشىء يوضع ليرتفع على أساسه الفن المكتمل الناضج، فلا حاجة لأصحابه إلى العـودة مرة ثانية إلى الصورة الناشئة، وإنما يحققون ذاتهم ويشعرون بكيانهم فـى القصيدة، إذا كانت تلك رؤية البعض، فهناك أسباب تمنع الشعراء -أحيانا- من الجنوح إلى القصائد الطوال، وتميل بهم إلى البيت أو الأبيات اليسيرة، وهذه الأسباب قد تكون من ذات الشاعر، وقد يعنى فيها بعمله.

فقد يكون جنوحه إليها عناية منه بمستمعه ومراعاة نفسيته، وذلك حين يجنبه الملل والسآمة، وفى إحداث أكبر تأثير فى نفسه عن طريق قلة عـدد الأبيات، وأما إذا كانت عنايته بعمله وفنه، فإنه يعمد إليها لرواج سوقها فى الحفظ والعلوق بالأفواه والأسماع والسيرورة بين الناس، وحتى يكتب لهـا الخلود والدوام.

ومن الاتهامات أيضا التى وجهها النقاد إلى الديوان، ندرة الصـورة الفنية والمحسنات البديعية التى تقترب من حد العدم، وهو مالا يليق ببلاغة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمام وفصاحته.

ولننظر إلى قولهم "تقترب من حد العدم" ونفتح الديوان لنتصفح قصائده ومقطوعاته ونرى هل جاء شعره خاليا من الصور الفنية؟

ومما لا شك فيه أن الشاعر يستمد صورة وأخيلته فى شعره مما وقعت عليه عينه وسجلته ذاكرته، وإذا كان الشاعر فى العصر الجاهلى قد أخذ صوره من بيئته سواء البادية أم الحضر، فهى صورة منتزعة من البيئة الصحراوية، ومن الحياة التى كانوا عليها؛ فإن الصورة فى العصر الإسلامى قد طرأ عليها بعض التغيير فى المصدر الذى كانت تأخذ منه، فحين نزل القرآن ولازمه حديث الرسول مبينا، تأثر به الشعراء وقرأوا صوره فأثرت فى نفوسهم، فظهرت واضحة فى شعرهم، فأنت ترى الرسول فى شعر شعراء المسلمين كالهلال والسراج والنور والضياء وهو الرحمة المهداة.

على أنه إذا كان الشاعر الإسلامى قد اعتمد أحد المصادر للصورة فى شعره القرآن والحديث فهى مشربة روح الدين، فإن الشعراء لم يتناسوا الصور والأخيلة التى علقت بأذهانهم ، وتأثروا بها فى بيئتهم الجاهلية التى ألفوها وعاشوها، فظلت علقة بنفوسهم فراحوا يصورنها فى شعرهم بعد الإسلام.

وإذا أردنا نموذجا ومثالا للصورة فى العصر الإسلامى، نجدها عند على بن أبى طالب، حين قتل عمار بن ياسر يوم صفين، وقد حملوه إلى خيمة علىّ ، فراح يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول[1]:

وما ظبية تسبى القلوب بطرفها ... إذا التفتت خلنا بأجفانها سحرا

بأحسن منه كلل السيف وجهه ... دما فى سبيل الله حتى قضى

فالشاعر يشبه وجه المقتول بالظبية التى تسبى القلوب فى الجمال،

---

١ - شرح ديوان الإمام على تحقيق د/رحاب خضر عكارى، ط دار الفكر العربى ، ط الخامسة ٢٠٠٣م، ص٧٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن إذا كانت الظبية تتجمل وتتزين بما تضع على وجهها فيزيدها حسنا وجمالا وسحرا، فإن القتيل قد زان وجهه هذه الدماء التى سالت فى سبيل الحق والخير والعدل، فالجمال فى وجه القتيل جمال الدفاع عن العقيدة والدين، والذب عنهما حتى يلقى مصرعه فى سبيل صيانتها واستمرارها.

وإذا أردنا نموذجا آخر نرى عليا يقول[1]:

ألبس أخاك على عيوبه ... واستره وغط على ذنوبه
واصبر على ظلم السفيه ... وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ... وكل الظلوم إلى حسيبه
واعلم بأن الحلم عند ... الغيظ أحسن من ركوبه

فبالرغم من تلك النصائح العظيمة، والحكم الجليلة ، إلا أنك ترى ألفاظها ولغتها رقيقة عذبة، تتداولها الألسنة ويعتادها الناس فى لغتهم اليومية.

• ألبس أخاك على عيوبه" كناية عن ستره وإخفاء عيوبه، وبما يعنى الأمر فى الفعل "ألبس" من الرجاء، ثم التأكيد على المعنى فى قوله "واستره وغط على ذنوبه" فمجال الوعظ والنصح يحتاج من صاحبه إلى استمالة مخاطبه والتودد إليه، ولذلك ترى مظهره واضحا فى الأبيات، واردا فى معظم أشطرها، تراه فى قوله "واصبر، ودع الجواب، وكل الظلوم، واعلم" وكلها أفعال وردت على صيغة الأمر للرجاء، فإذا كان محدثك يرجو لك الخير، فلا أقل من أن تنتبه لما يقول، وتعيره سمعك متدبرا قوله ومستفيدا منه.

وبالديوان الكثير من الشواهد والنماذج الدالة على تلوين الشاعر

---

١ - السابق ص٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأبياته بألوان الحسن والجمال، والصورة أحد الملونات التى يجمل بها الشاعر شعره، ويلبسه بها زيا قشيبا، يؤثر فى الروح ويخالط النفس.

وقد مر من قبل أن أهم ما يمتاز به شعر الإمام على أنه يعمد إلى مخاطبة العقول والأفهام، حتى لا يتطرق إليها الشك أو يتسلل الريب إلى نفوس محدثيه، فكان يعمد إلى الأدلة والحجج والبراهين، وما يخاطب العقل ينبع جماله من إحداث اللذة والمتعة عن طريق روعة الحجة وإصابة الدليل والمثال، وحسن العرض وإصابة الهدف من استخدام الألفاظ، فكان عليهم تصنيف شعره إلى هذين الصنفين، وكيف تنتج الروعة منهما، بدلا من رميه بالخلو، والافتقار إلى المحسنات وملونات الشعر التى تؤثر فى النفوس لروعتها وتأخذ بالقلوب لحسنها وجمالها.

ولو تتبعنا ما قاله البعض فى حق شعر الإمام، نجد من يمنع نسبة شعره إليه، لأن روح الفخر الشخصى وتعديد الأمجاد تكثر وتنتشر فى الديوان ، وخاصة قتله لعمرو بن عَبْدُود، وهذا ليس من أخلاق الإمام ولم يُعرف عن أحد من الصحابة.

وإذا نظرنا فى تلك المقولة، أو هذه الفرية فى حق شعره، نرى أن جملها متعارضة متناقضة، مما يسهل بذلك هدمها وإزاحة تلك الهنة أو السقطة عنه.

وإذا بدانا من حيث انتهى كلامهم "وهذا ليس من أخلاق الإمام، ولم نعرفه عن أحد من الصحابة" فإننا نقول: وهل خالف على فى ذلك الصحابة؟ وهل خالف بما فعل أخلاقه ومكارمه التى كان يتدثر بها؟

إن فخر الإمام لم يكن إلا فى المواقع والمشاهد الحربية التى خاضها مع رسول الله أو تلك التى خاضها وهو حاكم للمسلمين، أما فى غيرها فلن تجد هذا الفخر، وأما هذا الفخر المنسوب إليه كفخره ومدحه لقبيله همدان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القبائل العربية، فهذا مالا نقره.

لم يكن الإمام علي في حاجة إلى مثل هذا الفخر، فهو لم يكن كغيره من الشعراء المتكسبين بشعرهم، ومن جانب آخر فهو لا يريد إحداث الفتنة بين قبائل المسلمين، بتفضيله قبيلة وخصها بالمدح والفخر في

أما الفخر والاعتداد بالنفس ففي الموطن الذي يحبه الله ورسوله، في ميدان الحروب والمعارك، حيث يبعث الثقة في النفس، ويدخل الفزع والرعب في قلب العدو إنه التأثير النفسي في الخصم، حين يرى ما أنت عليه من ثبات وثقة، فتضعف عقيدته ويتزعزع يقينه، فيحتار عقله، ويستطيع أن تصل بسيفك إلى قلبه في صدره.

ثم أليس الفخر والهجاء فنين شعريين، هل كان النقاد يتهمون شعره بعدم النسبة إليه لو أذن له رسول الله بهجاء المشركين؟

يروى أبو الفرج الأصفهاني: أنه كان يهجو الرسول ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، فقال قائل لعلي بن أبي طالب: اهج عنا القوم الذين قدهجونا، فقال علي: إن أذن لي الرسول فعلت.. قال الرسول: علي ليس هناك، ثم قال للأنصار: ما منع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟

وسواء أصحت تلك الرواية أم لا ، فما لا شك فيه أن الرسول كان ملهما وموفقا في اصطناع شعراء المدينة في معركة الشعر ضد المشركين، إذا كانت المدينة أشعر القرى العربية منذ الجاهلية، كما يقول ابن سلام[1].

إذن يتضح من تلك الرواية أن الرسول لم ينكر على الإمام قول

---

١ - انظر الأدب في عصر النبوة والراشدين د/صلاح الدين الهادي ط مكتبة الخانجي ط٣ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص ٢٤٦ .

الشعر وهجاء المشركين، وإنما رأى أن هناك من هم أبرع ، وهم شعراء المدينة لاعتيادهم عليه منذ معركة الأوس والخزرج، وكذا لم ينكر- فى تلك الرواية- الصحابة قول الشعر على الإمام وهو لم ينف عن نفسه بانتظار إذن الرسول .

وقد كان الهجاء فى تلك الفترة قاسيا لاذعا، فقد ظل جاهليا فى صميمه يعتمد على المعايرة بالأنساب، وخمول الذكر، والعجز عن حماية الجار، والتولى يوم الزحف ويتضح من هذا أنه لم يتأثر من قريب أو بعيد بتعاليم الدين، ولم يكن النبى يحرص على توجيه شعراء الدين الإسلامى وجهات جديدة، تستمد فى أساسها من روح الدين ومبادئه "فهو يدل حسان على أبى بكر، ليعينه فى أنساب قريش ، ويدله على عوراتهم ، وهو يقول لشعراء المسلمين: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم"(١).

فالرسول يتعامل مع الواقع بنظرة صادقة وعين ثاقبة، فهل يعاير أناسا ظلوا يفخرون بشركهم، حتى وأرواحهم قد أوشكت أن تخرج من حلوقهم؟ أيترك ما يؤثر فى نفوسهم ويفل من عزمهم ويضعف شوكتهم ، ويتجه إلى مالا يعنون به ويسخرون منه؟

كذا يكون حال الفخر، فهو المقابل مع المدح لفن الهجاء، فإذا كنت فى معركة الإسلام ضد الشرك ، فعليك باستخدام الأسلحة المعنوية قبل الأسلحة المادية، لتذلل عملك وتساعدك فيما أنت مقدم عليه.

إن نظرة عابرة وليست متأنية متأملة فى ديوان الإمام على، يدرك المرء منها أن جميع ما فخر به الإمام بنفسه كان فى مجال الحروب، فإذا انتهت فلا مجال عنده إلا الفخر بانتسابه لدينه وإسلامه، على الرغم من أياديه الكثيرة على الإسلام منذ طفولته حتى نهاية حياته، ولكنه لم يفعل،

---

١ - الهجاء والهجاءون د/ محمد حسين الناشر مكتبة الآداب ١٩٤٧م ص١٧٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مما يعنى أن فخره لم يكن اعتدادا بالنفس، ولا تعظيما للذات والفعل بقدر ما كان أحد الوسائل المستخدمة للفل من عزيمة الأعداء فى ميدان القتال.

ولو أنك نظرت فى فخره فى ميدان القتال نظره متأنية، وجدته جمع بين لونين، لون قديم وهو لون الأنا، الذى يعتز بنفسه وعمله، ونوع جديد يظهر فيه الأخر، حين يجمع فى فخره بينه وبين الآخرين.

يقول فى يوم خيبر[١]:

يشهد لى بالكرو الطعن رايـــة ... حبانى بها الطهر النبــى المهــذب

ويعلم أنى فى الحروب إذا التظى ... بنيرانها الليث الهموس المرجــبُ

ومثلى لاقى الهول فى مفظعاتـــه ... وفل له الجيش الخميس العطبطب

وقد علم الأحياء أنـــى زعيمهـــا ... وأنى لدى الحرب العذيق المرجب

فالفخر هنا ذاتى، يفخر بأنه علم الجيوش وفارسها، وكم لاقى أهوالا، ولكنه دائما يقابلها بالثبات، لجرأته وشجاعته.

ثم انظر إليه يقول مفتخرا بنصره الله ورسوله ودينه يوم بدر[٢]:

نصرنا رسول الله لمـــا تـــدابروا ... وثاب إليه المسلمون ذوو الحجـــى

ضربنا غواة الناس عنه تكرمـــا ... ولما يروا قصد السبيل ولا الهدى

ولما أتانـــا الهـــدى كـــان كلنـــا ... على طاعة الرحمن والحق والتقى

فالشاعر يفخر ومن آمن من المسلمين "نصرنا" بالجمع ليس للتعظيم، وليس للشاعر وقومه كفخر الجاهليـــة، وإنمـــا لعلـــى وللمـــؤمنين، فهـــو والمسلمون شخصية واحدة، وكيان واحد، وهم بحاجة إلى هـــذا الاجتمـــاع والاتحاد فى بداية طريق نشر الدين وإذاعة أمرهم.

وإذا كان بعض الذين أرخوا للإمام من المتأخرين والمحـــدثين قـــد

---

(١) شرح ديوان الإمام على ص ٣٥.

(٢) السابق ص ٢١ .

ساورهم الشك فى نسبة بعض القصائد إليه، وأن بعض محبيه ادعاها عليه، فإن من الحق بمكان أن نقر بأن الإمام عليا وإن لم يقل الشعر كغيره من الشعراء المكثرين، فإن فى ما أنشده غنى عن كثير من الشعر لبعض المجيدين"(١).

وهذا حق لأمراء فيه، فينبغى على الناقد أن يتميز بالموضوعية، وأن يدل على مواطن العيب والضعف، وأن يشير إلى مواطن الهنات والسقطات وحسبه هذا، فتلك غاية المهمة المنوطة به والموكولة إليه، فمتى عدل الناقد عن تلك الرؤية، فقد أخل بسمة من سماته الناقدة.

فالناقد الأمين هو الذى يذكر ما للأديب وما عليه ، وهو الذى ينأى عن تعميم الأحكام النقدية، حتى يخرج عمله مقبولا.

المبحث الثانى : ملامح شعره الدالة على ذاته وعصره

١- ولو أنعمنا النظر فى هذا الشعر، رأيناه يعبر عن الواقع الذى كان يعيش فيه، فنراه قد جسم صورة واضحة لما كانت عليه حياة المسلمين فى ظل توطيد أركان الدعوة وإقامة أساس تبنى عليه ويرتفع عمادها.

فقد كان الشعر ينسال على ألسنة شعراء المسلمين عذبا رقيقا، يصور حياتهم ويعبرون فيه عن آلامهم وآمالهم، وعما تجيش به صدورهم، كما كان سلاحا ماضيا فى الدفاع عن الإسلام والرسول والمسلمين، وقد تمثل هذا الدفاع فى كثير من المعارك، سواء كانت تلك المعارك كلامية بين شعراء المشركين والإسلام، يتبارى كل فريق بما لديه من شجاعة وفروسية، ويتبارز كل منهما بما لدية من أسلحة تحصد النفوس وتطيح الرؤوس.

---

١ - شرح ديوان الإمام على ص١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلما برز مرحب يوم خيبر، أنشأ يقول مخاطبا الإمام على[1]:

قد علمت خيبر أنى مرحبُ ... شـاكى السـلاح بطـل مُجـرَّبُ
إذا الليـوث أقبلـت تلهـب ... أطعـن أحيانـا وحينـا أضـرب

فأجابه على:

أنا على بـن عبـد المطلـب ... مهـذب ذو سـطوة وغضـب
غيث فى الحروب وعصيان النوب ... من بيت عز ليس فيـه منشـعب
وفى يمينى صارم يجلو الكـرب ... من يلقنى يلق المنايـا والعطـب

وإذن كان طبيعيا لتلك المعركة الكلاميـة أن تكـون المناقضـة هـى أساسها، فما يتمثل به الطرف الأول ينقض أساسه الطرف الثانى، ويهـدم ويقوض بناءه فإذا كان مرحب قد فخر بأنه البطل المدجج بالأسلحة الـذى جرب الحرب وخبر أمورها "شاكى السلاح بطل مجرب"، وقد أشار إلـى عدم اكتراثه بمن يواجه حتى لو كانوا ذا عدد كبيـر" إذا الليـوث أقبلـت" بالجمع، ففيه أشعار بفروسيته، فمن كانوا ليوثا وجمعا ويواجههم بمفـرده، فكم تقدر بطولته وشجاعته؟ وهو الفارس الذى ينوع فى قتاله حتى يستطيع أن يتغلب على هذا العدد "أطعن أحيانا وحينا أضرب".

فأجابه على مناقضا "أنا على بن عبد المطلب" فأنـا علـم المعـارك وفارسها، "مهذب ذو سطوة وغضب" فهو التناقض الذى يعينه على أن يقابل كل موقف بما يلائمه، "من بيت عز" وفى هذا إشارة بتفوق نسبه وأصـله الذى لن يصل إليه مرحب أو يدانى ، فمن يلقنى يلـق المنايـا، باسـتخدام المضارع يلق، لدوام استمرار موت كل من يلقاه أو يتبارز معه، وفى ذلك بعث للرعب فى نفس مرحب، وزف بشرى موته على يد الإمام.

---

١ - شرح ديوان الإمام على ص٣٥

وحتى بعد أن تولى الخلافة ودبت الفتنة وثار النزاع، فكانت المعارك بينه وبين خصومه، يقول الإمام فى أيام صفين[١]:

يا أيها السائل عن أصحابى ... إذ كنت تبغى خير الصواب
أنبئك عنهم غير ما تكذاب ... بأنهم أوعية الكتاب
صبر لدى الهيجاء والضراب ... فسل بذلك معشر الأحزاب

وهكذا كانت تلك المعركة بين على ومعاوية تتطلب أن يفخر بأصحابه الذين أيدوه بل ويستخدم صيغ المبالغة، بعثا لروح الثبات، وتحميسا للجنود، ليشعروا بالفخر لما هم عليه، فيداومون ويستمرون، "فهم أوعية الكتاب" صيانة بقلوبهم وألسنتهم، وهم "صبر" مهما لاقوا من بأس الخصوم وكثرة عددهم، بل إن صبرهم يحيل حالتهم، فيتحولون من الدفاع إلى الهجوم ، حتى لو كثر "الضراب" والطعان.

وإذا قارنا بين المعركتين، وجدنا بونا شاسعا وأثرا بعيدا تركته فى نفس الإمام، فإذا كان الفرح والفخر بالقضاء على خصوم الدين وتثبيت أركانه ، ففى الثانية الألم والحزن نتيجة اقتتال المسلمين، فالفائز معذب مؤرق .

يقول على وهو يتحدث عن حالته بعد معركة الجمل، وما اعتراه من حزن وألم على قتلى المسلمين من الجانبين"[٢]:

إليك أشكو عجرى وبجرى ... ومعشرا غشوا على بصرى
إنى قتلت مضرى بمضرى ... شقيت نفسى وقتلت معشرى

فالخليفة الشاعر قد حشد على مقطوعته الألفاظ التى تنبىء عما

---

١ - السابق ص٣٨ .

٢ - شرح ديوان الإمام على ص٦٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

...ه من آلام، وما يقاسى من أحزان نتيجة قتال المسلمين، وألفاظ الشاعر ...ة عن حزنه وألمه "أليك أشكو" فالشكاية- أحيانا- تكون فى وقت يحزن ...الإنسان وتغيم نفسه، فيلجأ إلى الشكوى من موقف لا يقره .

وانظر إلى لفظى "عجرى وبجرى" وما ينبئان عن الهم والألم، " أنى ...ت مضرى بمضرى" وذلك غاية الحزن أن يقتل المرء أخـاه، ومعشـرا ...ـرا على بصرى" فهو يتألم لهؤلاء الذين قتلوا ولا يكاد يصدق مصرعهم، ...كأن غاشية على بصره لا تكشف له عن حقيقتهم، فلا يريد أن يقر بحقيقة مصرعهم فى ميدان المعركة.

ومن هنا لا تملك تجاه تلك الألفاظ إلا أن تشـارك الإمـام فجيعتـه وتكتوى بناره وينفطر قلبك ألما لما أصاب المسلمين فى هذه المعركة.

وقد تأخذ تلك المعركة الكلامية صورة مختلفة بهدف الإقناع، حـين يحاول كل فريق أن يظهر صدق دعواه، وأن دينه هـو الأولـى والأحـق بالإتباع، وأن الله قد اختص نبيه بأمور خارقة للعادة ، يتفـوق بهـا علـى الأنبياء، أو أن الله قد أيده بالتوفيق والإتباع لحلاوة منطقـه وسـداد رأيـه وصلاحيه ما يدعو إليه منهجا فى فوز البشرية وسعادتها.

فإذا قال كعب بن مالك[1]:

فإن يك موسى كلـم الله جهـرة ... على جبل الطور المنيف المعظـم
فقـد كلـم الله النبـى محمـدا ... على الموضع الأعلى الرفيع المسوم
وإن تك نمل البر بالوهم كلمـت ... سليمان ذا الملك الذى ليس بالعمى
فهـذا نبـى الله أحمـد سبحت ... صغـار الحصـى فى كفـه بالترنم

١ - ديوان كعب بن مالك دراسة وتحقيق سامعـى مكى الغانى دار مكتبة النهضة بغداد ، ط الأولى، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ص٢٧٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمن تفوق معجزاته وتعلو وتختلف عن معجزات الأنبياء السابقين، فهو جدير بأن تتبع رسالته ويقتفى أثره.

وقد أكد ذلك علىّ فى قوله[١]:

وأمسى رسول الله قد عز نصره ... وكان رسول الله أُرسل بالعدل
فجاء بفرقان من الله منزل ... مبينة آياته لذوى العقل
فآمن أقوام بذاك وأيقنوا ... وأمسوا بحمد الله مجتمعى الشمل
وأنكر أقوام فزاغت قلوبهم ... فزادهم ذو العرش خبلا على خبل

فالتضاد بين "أمن أقوام" و"أنكر أقوام" يوضح حقيقة نفوس أصحاب الديانات والمذاهب المتباينة فى مواجهة الإسلام، فإذا كان من المؤمنين الإيمان فكان جزاؤهم "بحمد الله مجتمعى الشمل"، وإذا كانت المخالفة من مختلفى الديانات فكان جزاؤهم أن "زادهم ذو العرش خبلا على خبل".

وقد تأخذ المعركة الكلامية صوة ثالثة تتمثل فى المدح والهجاء، فنرى كل فريق يمدح نفسه بالصفات التى تبرز تفوقه وصحة ما يدعو إليه، وفى نفس الوقت يهجو الفريق الآخر، ويوصمه بأقصى الصفات وأقذعها، فيبرز عيبه، ويرشد إلى ضعفه ويعرى خطأه.

وإذا نظرت فى هجاء الإمام علىّ وجدته يختلف عن هجاء شعراء المسلمين، ومن هنا ندرك السبب فى إحجام الرسول عن دعوة علىّ إلى الرد على مشركى مكة، واسناد هذا إلى غيره من الشعراء كحسان وكعب وابن رواجه.

انظر إلى حسان بن ثابت وهو يقول فى هجاء هند بنت عتبه، وهو

---

١ - شرح ديوان الإمام على ص١١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أشد أنواع الهجاء إقذاعا وفحشا[1]:

لمـن سـواقط صـبيان مُنَبـذَّة ... باتت تَفَّحصُ فى بطحـاء أجياد

باتت تمخَّضُ وما كنـت قوابلهـا ... إلا الوحوش وإلا جنـة الـوادى

فيهم صـبى لـه أم لهـا نسـب ... فى ذروة من ذرى الأحساب أياد

تقول وهنا وقد جد المخاض بهـا ... يا ليتنى كنت أرعى الشول للغادى

فحسان يُعيِّر هنداً بأبشع ما تعير به الحرة فى البيئة العربية فهى إمرأة زانية، تحمل عبء خطيئتها، ويرسم لك الشاعر صورة لمعاناتها تجعلك ترى الموقف وتعاين المشهد وكأنك كنت حاضرا تلـك الحادثـة أو هـذا المشهد.

"لمن سواقط صبيان" فالاستفهام الانكارى إشعار بأن الصبى لـيس لأبيه، وإنما هو عمل غيره، "منبذة باتت تفحص " فهى ملقاة علـى الأرض تتمرغ من عنف الألم وشدته وماذا تفعل وهى وحيدة لا تساعدها إمـرأة أو تهون عليها قريبة؟ "وباتت تمخض" كناية عن تحرك الوليـد فـى بطنهـا للخروج إلى الحياة، وما كانت قوابلها إلا الوحوش والإجنة الوادى، تقـول" وهنا" ضعفا وتعبا وقد جدّ بها المخاض "يا ليتنى كنت أرعى الشول للغادى" فهو التمنى الذى يكشف مقدار معاناتها، فكانت تتمنى ألا جاه ولا عز ، عن أن تسقط بها قدمها وتزل إلى مهاوى الخطيئة.

إذن فحسان يهجو بتلك المعانى القديمة التى تمثلتها نفسـه وتمكنـت منها، والتى كان يهجو بها الشعراء فى الجاهلية، فكانت تلك المعانى أشـد إيلاما وإيذاء فى نفوس أعداء الدين من أن يهجوهم بكفـرهم أو ينـذروهم بعاقبة أمرهم، فكان من أثر العناية بالدين أن ظـل الهجـاء جاهليـا فـى

---

١ - ديوان حسان بن ثابت شرحه محمد العنانى ط، مطبعة السعادة ١٣٣١هـ ص١٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صميمه، يعتمد على المعايرة بالأحساب، والإنساب، وكل ما لم تكن البيئة العربية تقره أو ترضاه سلوكا لأبنائها.

وأما الإمام على فقد تأثر فى هجائه بأسلوب القرآن، فكان يعيرهم بالشرك وعبادة الأوثان وسوء المصير، وإلصاق ما لا يليق من صفات، يقول[١]:

أبا لهب تبت يداك أبا لهب ... وتبت يداها تلك حمالة الحطب
خذلت نبيا خير من وطىء الحصى ... فكنت كمن باع السلامة بالعطب
وخفت أبا جهل فأصبحت تابعا ... له وكذا الرأس يتبعه الذنب
فأصبح ذاك الأمر عارا يهيله ... عليك حجيج البيت فى موسم العرب
ولو كان من بعض الأعاد محمدُ ... لحاميت عنه بالرماح وبالقضب

فالشاعر هجا بمثل هجاء القرآن "أبا لهب تبت يداك" ، " وأمرأته حمالة الحطب" ويهجوه بضعف التفكير وسوء الفهم وتحجير العقل " وخفت أبا جهل فأصبحت تابعا" ثم يشبه حالته "وكذا الرأس يتبعه الذنب، فإذا كنت قد أبطلت عمل العقل وتابعت دون فهم فأنتما تنتميان إلى فصيلة الحيوان، لا عقل لها، فأحدهما رأس الحيوان أبو جهل"، والأخر الذنب "أبو لهب" .

ومن مظاهر تعبير شعره عن ذاته وعصره أيضا، ما ترى عليه أسلوب الإمام على فقد ارتبط بعصره وأظهر حسن تعبيره عنه وتمثله له.

ولننظر إلى نموذجين مختلفين من شعر على ، لنرى مدى صحة هذا التمثل وحسن التعبير، يقول الإمام فى فائدة التغرب عن الوطن، إذ يرى الإنسان فيه النأى والألم والوحشة[٢]:

---

١ - شرح ديوان الإمام على ص٢٧.

٢ - شرح ديوان الإمام على ص٥٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغرب عن الأوطان فى طلب العلى ... وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل فى الأسفار ذلة ومحنة ... وقطع الفيافى وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من قيامة ... بدار هوان بين واش وحاسد

وانظر إليه يقول فى القصيدة الزينبية، وهى مطولة ترجمت إلى التركية وشرحت كما شرحت بالعربية، يقول فى مطلعها[1]:

حرمت حبالك بعد وصلك زينب ... والدهر فيه تصرم وتقلب
نثرت ذوائبها التى تزهو بها ... سودا وراسك كالثغامة أشيب
واستفزت لما رأتك وطالما ... كانت تحن إلى لقاك وترغب
وكذاك وصل الغانيات فإنه ... آل ببلقعة وبرقُ خُلَّبُ

فالبيئة العربية بيئة طبيعية- كمعظم البيئات- يجود بها الغيث حينا، ويشح حينا آخر وتخضر بعض وديانها فى مواضع، ويصيبها القحط فى مواضع أخرى، وتنساب النسائم رقيقة خفيفة فى بعض المرتفعات، وتقسو حرارة اللهيب والشمس فى البعض الآخر، فهى بيئة أخذت من الحياة وأعطتها كما أعطت سائر البيئات فى الأرض، ومنعتها كما منعت الكثير من المخلوقات فهل يعاب نموذج الإمام الأول لسهولته على الرغم من عمق فكرته؟ وهل يعاب النموذج الثانى لوعورته؟

إن للشعر الجاهلى متانة فى أسلوبه وقوة وجزالة، فطابعه البدوى الواضح الذى يفجؤك فى شتى الشعر الجاهلى ما هو إلا أثر للبيئة والحياة الجاهلية، ولذا يكثر به الغريب الوحشى، ولا شك أن هذا أثر البيئة البدوية الخشنة فى عقول ونفوس أبنائها.

---

١ - السابق ص٤٥.

وقد سار شعراء العصر الإسلامى على هذا النهج حينا، وحينا آخر أغرقوا فى السلاسة والسهولة، وهما فى الحالتين متأثرون ببيئاتهم فى الجاهلية والإسلام.

ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز فى نتاج الأديب وفنه؛ لأثر الحياة الجديدة فى نفسه، فهل يقف بعيدا متواريا وهذا القرآن ببلاغة وفصاحته وملازمه حديث الرسول فى الرقة والسلاسة دون أن يتأثر بهما فى إبداعه؟

أم أن الشعر العربى فى نشأته كان أثراً للفطرة والبديهة واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة التى يحيا وارتباطه بها؟

لقد كان أكثر الشعر فى بدايته ارتجالا، أو ما يشبه الارتجال، ينظمه الشاعر على البديهة، فيأتى عفو الخاطر، فترد إلى ذهنه المعانى وتتوالى، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعرا وشعورا وسحرا وجمالا، كل ذلك فى سهولة وتدفق دون مراجعة أو تثقيف.

فهل على ابن بيئته العربية ما زالت تبدو فى شعره أثرها وما زال يردد مفرداتها ويتناول تراثها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثانى النثر (الخطابة)

المبحث الأول: الخطابة قبل الإسلام

قال أبو عمرو بن العلاء :

"كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويرهب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى الموقة، وشرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"(١).

فقد كان شعراء الجاهلية فى أوليتهم يرون أن الشعر أرفع من أن يجعل وسيلة للتكسب ، وأسنى من أن يكون ثمنا للحطام، حتى جاء زهير بن أبى سلمى الذى أكثر من تناول الجوائز على شعره، ثم صار الشعراء من بعده فأكثروا من المدح للنوال والقدح عند الحرمان .

فالخطابة- على ما يبدو- لم يحفل بها الجاهلى لذاتها، وليس لتوافر دواعيها وأسبابها، ولكن لأن الشاعر انحط بشعره إلى مستوى أنفه العربى الحر، هذا إلى جانب أن الخطابة كانت وسيلة فئة معينة منهم فى أكثر حالاتها، فلم يقم بها الغالبية كما تجد فى الشعر، "فقد كانت تقوم بها فى الجاهلية سادات العرب ورؤسائه من فاز بقدح الفضل وسبق إلى ذرا المجد، ويخصون ذلك بالمواقف الكرام، والمشاهد العظام، والمجالس الكريمة، والمجاميع الحفيلة"(٢).

ومن ثم توقفت الخطابة نتيجة لذلك عن التطور والنمو، فلم يكن

١- البيان والتبين للجاحظ ط دار الكتب العلمية بيروت الجزء الأول ص١٣٦.

٢- صبح الأعشى لأحمد بن على القلقشندى شرح محمد حسين شمس الدين ط دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى الجزء الأول ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. ص٢٥٤

الخطيب يدلح فى أن يصل من سامعيه إلى أكثر مما يصل إليه الشاعر منهم، وظل قصارى جهده أن يستحوذ على قلوبهم ويملك مشاعرهم، فالخطبة فى الجاهلية كانت أقرب إلى الشعر، ولولا تحلل الخطيب من بعض قيود الشعر لكانت شعرا، لأن أفكارها ومعانيها وأغراضها كانت فى أكثرها شعرية.

ونتيجة لتلك الحالة فقد تلونت الخطبة الجاهلية بسمات وتميزت بمميزات، فكان من أثر ذلك أن ضاق أسلوب الخطيب، وأصبح يتردد بين الحكمة والمثل، يسردها الخطيب لتقوم بدور التأثير، وبين أن تكون سجعا ذا قيود يقترب بالخطبة من الشعر خطوات، وبين أن تكون أفكارا متباينة لا يشدها إلى بعضها إلا رابط نفسى.

وكما ظل الأسلوب محصورا ضيقا يتردد بين المثل والحكمة، ضاقت كذلك أغراضها وانكمشت ضروبها، ومن ثم قصرت أغراضها على المنافرات والمفاخرات والحض على القتال، والتحريض على الأخذ بالثأر، وإصلاح ذات البين، والنكاح والإرشاد، وخطب المحافل والوفود، والوصايا ، وسجع الكهان.

ومع تلك الكثرة العددية لأغراضها إلا أنها على كثرتها لا تثرى، فليس فيها ما يدفع الخطبة إلى الترقى، إذ كلها تدور فى محور واحد، فلا يلتمس معها التجويد أو الاستعداد لتخطى الجواجز، والانتقال إلى مجالات أخرى تدفع الخطيب إلى التبريز .

هذا على الرغم من أن الدكتور شوقى ضيف يرى فى تلك الأغراض سمة من سمات رقى الخطابة، وعاملا من عوامل تطورها وتقدمها، يقول:

" وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية، وأن تتناول أغراضا مختلفة فقد استخدموها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب

والأنساب والمآثر والمناقب... وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفا من تعدد أنواعها وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء، أو النصح والإرشاد، أو الدعوة إلى الحرب، أو الكف عن القتال، أو في المنافرات والمفاخرات، فقد استقر في نفوس العباسين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب"(١).

بيد أننا لو أنعمنا النظر إلى تلك الأغراض مظهر التطور والترقي، لوجدنا أن مجال المنافرات والمفاخرات يعتمد على دقة الملاحظة وحسن البصر في التماس العيوب والهنات واستغلال الصفات في افحام الخصم دون أن يهتم بالمعنى وتنميق العبارة وتجويد الأسلوب، فهو معنى بالبحث عن العيوب والزلات، ليستطيع افحام الخصم في تلك المنافرة، والقضاء على هيبته، فلا يرفع رأسا، أو تسول له نفسه الدخول في معركة فيخرج منها مطأطىء الرأس منكسر القلب.

وميدان الحض على القتال والتحريض على الثأر يضيق بابه أمام الخطيب فلا يستطيع أن يلج منه إلى عالم أرحب يستطيع من خلاله الإتقان والتجويد، أو البراعة والتحبير، ضيقته طبيعة العربي المهيئة للانقضاض، المستعدة للقتال، فالتحريض يحتاج إلى الابتكار والتجويد إذا كان موجها إلى إنسان في حاجة إلى إثارة أو إقناع، أما إذا كان عربيا جاهليا فهو ليس في حاجة إلى شيء من ذلك، ومن ثم فالتحريض بالنسبة له ليس أكثر من تنبيه لفت نظر، ومثل هذا ليس في حاجة إلى تحسين أو إتقان.

والإصلاح والإرشاد والوصايا أغراض حددتها حياة العربي، والشكل

١- انظر تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ط دار المعارف ط العشرون١٩٧٧م ٤١٠ وما بعدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السائد فى البيئة العربية، فوسمتها بسمات ، وحددت لها من الحدود مما يجعلها وسيلة تطوير أو ترقي ، فليس شيء من هذه الأغراض التي الغالب- موجه إلى جمهور، يحتاج فيها الخطيب إلى وسائل ومسالك يدرك من خلالها أحوال السامعين عند إلقاء خطبته، أهم مقبلون عليه، فيسترسل فى قوله ويستمر فى نهجه ؟ أم هم معرضون عنه فيتجه إلى ناحية أخرى يراها أقرب إلى قلوبهم، وينفذ بها إلى حواسهم ومشاعرهم؟

فلا جمع يشعر الخطيب من ورائه بمدى قوة ملاحظته، ونظراته الفاحصة الكاشفة يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ومن اللمحات ما تكنه النفوس، ويدرك مدى الحاجة إلى التجويد والإجادة ، فيجدد نشاطهم، ويذهب بما يستحدث فتورهم ، فتصل روحه بأرواحهم ونفسه بنفوسهم.

وأما خطب المحافل والوفود فتقيدها طبيعتها السياسية، وشكلها الرسمى الثابت الذى يكبل الخطيب بقيود، ويفرض عليه تعبيرات تحتاجها تلك المواقف ، فهو معنى بما تمرن عليه وتدرب، ولا يحيد عما رسم من وضع الأعراف والتقاليد فى تلك المناسبات، ولا شك أن مثل هذا لا يطور فن القول، أو يرقى بفن إذاعة وتعبير.

وما سجع الكهان بأوفر من سابقيه حظا، فهو دعوة إلى التقييد والتضييق ، وليس إلى الإبداع والخلق والابتكار.

فتلك الأغراض على كثرتها لا يتسع فيها الميدان لأن يطلق عقال الخطيب فيصول ويجول، ويقلب المعانى على مختلف الوجوه، بل هى فى جميعها تكاد تصدر عن مصدر واحد وتنبع من منبع واحد، لا يختلف مذاقه، وإن كانت فروعها مختلفة فى الأشكال والألوان.

ومن ثم ونتيجة لهذا الحصر، وعدم وجود الدافع أو الرغبة فى التجويد، فقد وسمت الخطبة الجاهلية بسمات منها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١- **القصر:** الذى وسمها لا عن قصد أو إرادة من الخطيب، تحقيقا لوصف معين وإنما فرضتها طبيعة الحياة الجاهلية ، فسماء العربى صافية لا غيم فيها، ومن ثم فهو يرى كل شىء ساطع على طبيعته، فلا يحتاج إلى توضيح الظاهر أو شرح الغامض فمن أين يأتيه الغموض والسماء مفتوحة ولا تشح الغموض فيما تستظله وترسل عليه أشعتها ونورها؟

فالبيئة الجاهلية لم تكن تستدع طول الخطبة، لأن حياتها لم تكن حياة فكرية نامية أو ذات حضارة معقدة، تستدعى بسط الحجة وتقوية البراهين، وإقامة الدليل .لى ما يقول وإنما كانت تقوم حياتها على البساطة والصدق والوضوح، والفطرة والسليقة، ومن ثم كان العربى بعيدا عن الفلسفة والتعقيد والغموض والخفاء، فلم تيسر له الحياة التى يعيش فيها والسماء التى تظله، والأرض التى تقله من العوامل ما يخرجه عن طبيعته الفطرية السائدة التى تدفعه إلى أداء فكرته من أخصر طريق بأوجز عبارة وأوضح أسلوب.

على أن هناك من الخطب ما يمكن أن يستثنى من ذلك القصر، فقد كان هناك من الخطباء من يطيلون نسبيا فى خطب النكاح وإصلاح ذات البين، ولكنهم لا يضعون أساسا يرتقى عليه أو نموذجا يحتذى به.

٢- **عدم العناية بالمقدمات:** فقد كان الخطيب الجاهلى يهجم على أغراضه مباشرة من غير تقديم ولا تمهيد ، فليس فى صحرائه المكشوفة الواسعة ما يلفته إلى الالتواء والبدء بالمقدمات، فما هو إلا أن يتبوء موضع الخطابة حتى يجول فى الموضوع ويصول وينتهى منه فى أقرب وقت ومن أيسر طريق، هذا إلى أن شدة الحياة قد خلعت على نفسه الضيق والتبرم، مما يدفعه إلى أن يبدأ بما يريد أن يقول، وإذا أسمع طلب إسماع ما يراد فحسب، ومن ثم فلم يكلف نفسه بأن يضع لخطبة خاتمة ينهى بها كلامه إذا

انتهى من عرض فكرته لذلك السحب الفطري ذاته.

٣- سذاجة الأفكار: كانت أفكار الخطبة الجاهلية ساذجة بسيطة على العموم، وذلك لضآلة نصيب العرب في تلك الآونة من الثقافة الفكرية، فكان من يعنى بالثقافة يوجه ذاته إلى دراسة مواقع النجوم ومطالع الكواكب، وأسرار الرياح، وتاريخ القبائل وأيام العرب إلى غير ذلك من المعلومات السطحية البسيطة والتي لا تحوج إلى كد ذهن أو إعمال فكر، أو قصد إلى ترتيب، أو سعي إلى استنباط وإنما هي حقائق مقررة للصحراوي ما تتطلبه أن يستوعب ويستذكر.

ومن ثم ونتيجة لذلك فقد كان الخطيب يرسل أفكاره حسبما تتوارد في مخيلته دون أن يعنى بتنسيقها أو ترتيبها، حتى ليعسر على متابع هذا النتاج -في كثير من الأحيان- أن يحدد موضوع الخطبة الذي يقصد إليه الخطيب.

٤- التزام السجع: وتلك أهم خواص خطبة الجاهلية، فالتزموه في خطبهم ليكون بديلا عن الموسيقى الشعرية التى كانت تقدم الشعر عليها، فلا تتسع الهوة بين الفنين ولتكون الخطبة أسهل فى السمع وأقرب من القلب، ولتكون سريعة الشيوع والانتشار وأبعد فى النبوع والاستمرار، فقد فطر العربى على قول الشعر، فتأثرت لذلك لغة النثر عندهم، واتجهت عن قصد منهم أو عن غير قصد إلى محاكاة لغة الشـعر فـى مجازهـا وخيالها وموسيقاها وألفاظها.

المبحث الثانى: أثر الإسلام فى الخطابة.

" فى عصور الانقلابات الفكرية والاجتماعية والسياسية تسود الخطابة ، حيث يصطدم القديم والجديد، والمألوف بما هو غريب بدىء ، إذ تكفر له العقول، فتتحير بعض الألباب أمداً طويلا أو قصيرا، وتضطرب بعض

... ما ألفت من قديم وما عرفت من حديث، وينكر الحق بعضهم ... ويرون مصلحتهم العاجلة في التمسك والأخذ بأهدابه، والنفوس ... والقلوب الزاكية تدرك الصواب، وترحض عنها أدران الباطل ... وتتجاوب معانقة، وتتجه إلى نوره، يشتد الاختلاف بين أولئك ... الحق، وكل يريد اجتذاب الجماعة إلى طريقه، وكل يتخذ ... كل وسائل لحجته، لتشكك موهمه، وذلك بلسان ذرب، وبيان رائع، وبلاغة ... الإغراء، لتسلك إلى أعماق القلوب"(1).

وقد تأثر العرب بالإسلام في كل مناحي حياتهم فسرى فيهم بيانه، وأزال ما كان من خشونة في أخلاقهم، ورقق في طباعهم، وهذب من مشاعرهم، وأثر في كلامهم، حتى ليمكننا القول بأن العرب قد تغيروا بالإسلام فأصبحوا ناسا غير الناس السابقين.

والدارس لتاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، يدرك أن هناك تحولا وتغيرا طرأ عليه في هذه المرحلة، وقد نبع هذا التحول والتطور منذ التقى العرب بكتاب الله الكريم، فاجتمعوا على مبادئه وقيمه، والتزموا بأحكامه وتشريعاته.

فالقرآن الكريم هو الكتاب الذي توارى أمامه كل ما أنتج العرب من أدب، وما قدموا من بيان، فتمت له الصدارة، وخلصت له الريادة والقيادة، وأصبح هو المثل الذي يحاول كل عربي ومسلم أن يحتذيه في حياته، ومن ثم فلم يجدوا بدا من الخضوع أمامه، والاستسلام لروعته، وأصبح قصارى جهد كل عربي مسلم أن يتعرف على شيء مما في التعبير القرآني، فيبني عليه أدبه، ويروض عليه لسانه.

---

١ - الخطابة أصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب محمد أبو زهرة ط دار الفكر العربي ط الثانية ١٩٨٠م ص٢٤٧ .

وكان لذلك أثر واضح على الخطابة فى هذا العصر فتطورت وتغير سمتها وتبدل طبعها عن خطابة العصر السابق، وجاء هذا التطور والتغير نتيجة عدة عوامل ومؤثرات فكان من الضروري أن نذكر بعض تلك الأمور التى غذت النفوس غذاء نمت به الخطابة وازدهرت وقويت ونهضت، وأعظم تلك الأمور شانا، وأجلها فى حياة العرب خطرا، وفى الخطابة أثرا:

١-لما دخل الناس فى دين الله أفواجا، كان على النبى ﷺ أو من يعمد إليه بأن يكون أميرا للقوم ، مرشدا ومعلما- أن يبين لهم أحكام دينهم، فيوضح ما أجمل، ويفسر ما غاب عن الذهن القاصر أن يلتفت إليه، وذلك بأقوال محكمة فيها وحى النبوة وقبس من نور الله، وبذلك قدم الإسلام للعرب أمثلة للخطابة ينهجون نهجها، شيئا غير ما اعتادوه، وجرى على ألسنتهم ، فما إن سمعوا القرآن حتى فتنوا به، وذهلوا عن الأخذ منه والانتفاع به، فلما آنسوه أقبلوا عليه، فإذا بهم أمام نمط من الخطابة يغاير ما عرفوا من أنماطها، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع معا فى أسلوبه، فلم يكن بد من ترسم خطاه والسير على هداه ، فقد لسموا فى آيات الخطاب المبثوثة فى معظم سوره، عمق الفكرة، وترتيب الأفكار ترتيبا لا قلق فيه ولا تكرار ، فترى المشهد الواحد يشمل المقدمة والعرض المفصل والخاتمة المتضمنة ما بنى عليه الخطاب، وما كذلك كانت خطابة العرب ، وما وقع فى أسماعهم من قبل خطابة تسير هذا المسار.

ومن عوامل تطور الخطابة أيضا استجابة الرسول لمنهج الدعوة الذى ته إليه ربه فى قوله ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] فإنه بمجرد أن صدع النبي بالحق، ودوى صوت رسالته في بلاد العرب والبعث ذلك النور الوضاح، فأضاء السهول والجبال، تجرد الخطباء من العرب للرد عليه أو الدعوة إليه، وقد كان الرسول ﷺ هو الفصيح القرشي، ذو البيان النبوي يجادل ويناضل، ويدافع ويصاول، وليس له الإلسان أيده روح القدس، وحق أوحى الله به، فإذا كان كلامه على تلك الهيئة وفيه المثل الكامل للبلاغة ، وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان، علمت أي مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية.

ولأنها تمكن من التأثير في الجماعات فقد اتخذها الرسول وسيلة في دعوته العرب وغير العرب، مشعرا بأن حياتهم سوف تتغير عن طبيعتها ، فتشعر البشرية بسمو منزلتها وعلو درجتها، ومن ثم أصبحت الخطابة وسيلة العمال والولاة الذين يبعثهم الرسول إلى الأمصار، وقد بين لهم القدوة والمثل في الخليفة أو الحاكم في ألا يستبد بالأمر، فتنطوي الضلوع على الحقد، أو النفوس على الهم أو عدم العناية بإبداء النصح وإسداء المشورة فكان إذا أقدم على عمل صعب أوهم بأمر خطير، جمع الصحابة ومن حضره من المسلمين فشاورهم فيما هو مقدم عليه، موضحا بخطبته ما رام من وراء هذا الأمر، مبينا وجهته فيه وما ينتظره من وراء الإقدام عليه، ثم يتعرف رأيهم فيما أزمع ، فيأخذوا برأيه وما استقر عليه أو يأخذ بما أتفقوا عليه ورجحوه.

ومن ثم عنى المسلمون بتعديل منهج الخطابة بما يتلاءم مع وظيفتها الجديدة، فجعلوا للخطبة أجزاء لها ابتداء ولها ختام، وبين هذين يعرض الموضوع متماسكا متلاحما، لا تفكك فيه ولا تخلخل، مرتبا لا اضطراب

---

١ - سورة النحل الآية : ١٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيه، تلقاه الآذان كما تتلقى النغمة المتساوقة الخالية من النشاز، وواضحا بعيدا عن اللبس والاحتمال، قاطع الدلالة على الغرض، ومقنعا لا يأباه العقل ولا يتأبى على العقل، ومغريا يتجذب إليه القلب، ويستحوذ على المشاعر، وصادقا لا يتسرب إليه الريب .

واشترطوا فى المقدمة شروطا أملاها عليهم إحساسهم بجليل شأن الخطبة، فالتزموا فيها إلى كونها ممهده للموضوع ، موطئه لأكنافه، بينه الدلالة على الغرض ، أن تفتتح بحمد لله، والصلاة على النبى ، وسموا كل خطبة لا تفتتح بذلك بسمة البتراء، وكان الخطباء يختمون خطبهم بنحو ما يستهلونها من التحميد والتمجيد أو الدعاء ، حتى أصبح لكل خطيب عبارة يطيل تكرارها، فيعرف الناس أنه على وشك الانتهاء من خطبته.

٣-ولم يكتف القرآن بتقديم المثال التعليمى العرب، ولكنه اتجه اتجاها مباشرا إلى توجيههم لذلك ، وتمثل ذلك فى توجيه الرسول إلى نماذج الخطابة كما يجب أن تكون، فخطابه فى كثير من المواقف بقوله تعالى ﴿قل﴾ ثم ذكر ما يقال، هو درس عملى مباشر فى فن القول والخطاب ، يبين للعرب المنهج الأفضل فى هذا الميدان، مقتبس من القرآن وسائر على منهجه ودربه، معلما الخطيب كيف يخاطب الناس، وكيف تقرع الحجة بالحجة، وكيف تحرك القلوب وتثار المشاعر، وكيف تفتح العقول.

٤-كما كان لتلك المعركة الحامية بين الشرك والإسلام أثر كبير فى تطور الخطابة، الكل يؤيد ما يدعو إليه فى الوقت الذى يهاجم أفكار وأراء خصومه، ويفندها ويبين خطأ أصحابها، فكانت الخطابة سلاح المسلم فى حرب المشركين، وذخيرة يحتفظ بها القادة دائما ليمدوا بها معين الجند فلا ينضب، فلا يغذى الروح إلا الخطبة فهى تهيج المشاعر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتستثير الهمم، وتستعدى الروح.

فقد رسم مثلا غير المثل التي كان يعيش فى ظلالها الجاهليون، ودعا إلى عقائد وأعمال غير التي كان يعتقدها ويعملها الجاهلون، ومن ثم ثار نزاع واشتد، بين القديم المألوف وبين الجديد الذى يدعو إليه الإسلام، وتنوعت مظاهر ذلك النزاع واختلفت.

فتارة تأخذ شكل المناقشة التي تتم فيها المواجهة والأخذ والرد، وتارة تأخذ شكل الدعاية والإعلان ، حتى تطور فى آخر الأمر، وأصبح اشتباكا باليدى.

وكان هذا النوع عاملا فعالا فى انتعاش الخطابة، وبابا واسعا ينفذ الدعاة منها إليه إذا الداخلون فى الإسلام لا يفترون عن مباشرة الخطابة، فهم يخطبون ليبينوا للآخرين ما رأوه فى الإسلام من محاسن أغرتهم باعتناقه، وهم يخطبون ليدعوا من لم يدخل الإسلام إلى دخول فيه، معتمدين فى ذلك على الاقناع تارة ، والاستمالة فى مهارة تارة أخرى.

والمعاندون من ناحية أخرى يخطبون ليعلنوا ثباتهم على القديم ، وليبرروا هذا الثبات، وليحثوا على الاستمساك بتراث الآباء والمحافظة عليه، وليشوهوا الجديد، ويهونوا من شأنه وشأن تابعيه، وليغروا بالمسلمين ويثيروا فى النفوس روح العدوان عليهم معتمدين أيضا فى ذلك على عنصر الخطابة.

٥-يضاف إلى ذلك ما أتاحه الإسلام ولم يكن متوافرا للأكثرية من قبل، وإنما كان مخصوصا بطائفة معينة، وذلك هو الحرية فى إبداء الرأى، ومن هنا تقوى الخطابة وتزدهر كلما كانت الحرية شجرة يستظل الناس بفيئها ، وثمرة حلوة المذاق يبقى مداها وأثرها عالقا بالحلق، يشعر بلذتها ومتعتها فى كل وقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد كفل الإسلام الحرية الشخصية للمسلم، بل زادها فيه وإماما، ولكنه لم يجعلها وسيلة هدم وتمزيق للجماعة وتبديد لكلمتها وذهاب لريحها، وأدل لنجمها، ومن هنا كانت الحرية فى صدر الإسلام عاملا قويا وداعيا للإكثار من القول البليغ، يجابهون به حتى الخلفاء، فليس ما يصدر فى المظهر إلا حقيقة عن جوهر، فأنى لرجل أو إمرأة أن يجابه عمر بن الخطاب ونحن نعلم من هو عمر إلا أن يكون متمتعا بالحرية الشخصية، مدركا فى نفسه أن الخليفة يراها حق مكفول لكل رعيته، ومورد ينهلون من نبعه.

٦-كما أدت الفتن والثورات التي عمت الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى ﷺ إلى انبعاث هذا اللون الخطابى فى محاولة مقاومتها ودحضها والقضاء على خطرها.

فلم يستمر استظلال المسلم بفيء الوحدة الإسلامية أمدا طويلا، فقد نبتت الفتن فى عصر الخليفة الثالث عثمان، حتى أنتجت نتاجها وأثمرت ثمرتها، فكان أولاها نفس الخليفة، وأدت بعد ذلك إلى اشتداد المحنة، فانقسم المسلمون إلى أنصار ومخالفين للإمام على، فكان هذا اللون الذى يدعو إلى الوحدة لتكون كلمة المسلمين صفا واحدا فى وجه أعداء الأمة، فلم تكن الحاجة إلى الخطابة أمس منها فى ذلك الحين، لأن قادة كل فريق يريدون تقوية الروح المعنوية ، وخلق الإيمان فى نفوس أتباعهم بإسلامية عملهم فقط ومن ثم فهم فى حاجة إلى الإكثار من القول وإعادته وتكراره، لأن التكرار يدخل فى النفس توهم صدقه وصحته، حتى نفوس من يعارضونه، وهكذا أصبحت الفتنة التي وقعت بين على ومعاوية مصدر إثراء للخطابة الإسلامية.

٧-كما دعا الإسلام إلى الشغف بالمعرفة، ومقارعة الأراء والبحث وراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأفكار ... ودعت المسلم إلى التفكر في الكون والتأمل فيما وراءه مما نوع من الخطابة يعتمد على الجدل، والنزوع إلى استخدام المنطق من حيث تركيب المقدمات واستخلاص النتائج، ومثل هذا النوع جديد لم يكن معهودا من قبل، وأسلوب القرآني، الذي ولجا في مجالس من الأمور إلى استثارة العقول وإثارة ملكة المنطق، وهي أيضا وليدة استجابة العرب لدواعي الحضارة وأخذهم بأسبابها شيئا فشيئا.

ونتيجة لتلك المؤثرات، فقد جاءت الخطبة في الإسلام على سمات وخصائص لها مميزات منها:

١) الطول، حيث مست الحاجة إلى الإطناب فيها، لعرض جوانب الفكرة التي يقدمها الداعي، أو تبرير ما اتخذه من المواقف، أو تبسيط ما يأخذه على الخصم من أخطاء وانحرافات، أو الاستطراد في ذكر الحجج والبراهين على قوة ما يرى، وتوهين ما يراه غيره، إلى غير ذلك من دواعي الإطالة.

٢) الحرص على تقسيم الخطبة، حيث تبدأ بمقدمة توحي بالموضوع، ثم يعرض للموضوع مستخدما ما فيه كل ما يمكن من وسائل العرض، ثم خاتمة يلخص فيها ما بسط ويجمل فيها ما فصل.

٣) الحرص على أن يكون العرض قائما على التركيب المنطقي الذي يعتمد على استخلاص النتائج من المقدمات.

٤) قوة الفكرة التي تتناولها الخطبة، فلقد أصبحت الخطابة أداة التعبير الأولى، فكان عليها أن تحمل ما جدّ في المجتمع المسلم من مضامين، ومن ثم أصبحت أفكارها في مستوى المخاطبين بها قوة وعمقا وتشعبا.

٥) إرسال أسلوبها، وعدم التزامها لون أسلوبي معين، فجعلها تتردد بين الطول والقصر على حسب حاجة الخطيب إلى ذلك، والسجع فيها غير

ملتزم ، لا مقصود إلا أن يجيء عفوا، إذا للخطيب من جلال موضوعه، وترتيب أفكاره ما يشغله عن الاهتمام بالتحسين اللفظي والقصد إليه.

٦) توشيح الخطبة بآيات القرآن، والأحاديث النبوية، والحكم والأمثال السائرة، تزييناً وإقناعا، فإيراد القرآن والحديث مما يورث الكلام البهاء والوقار.

وهكذا اجتمع للخطبة العربية بمجيء الإسلام كل أسباب النمو والترقى، فقد تهيأ لها من أسباب الذيوع والانتشار ما لم يتهيأ لها من قبل، فقد أصبحت الوسيلة الأولى، والأداة المعبرة عن الدعوة ، تنطق بمحاسنها وتشرح للناس أسرارها ودقائقها، وتدعو المرء للإقبال عليها والتعلق بأهدابها .

المبحث الثالث: الدراسة الموضوعية .

نهضت الخطبة وتطورت على عهد الإمام على تطورا واضحا، وصارت سلاحا قويا يلجأ إليه على ومعاوية، يثيران بها الأنصار، فيهيجان المشاعر ويحفزان النفوس فيدفعان جنودهما إلى التلاحم والتصادم ، يعتقد كل جندى أنه على الحق، وأن رأيه الصواب، فيندفع إلى حومة الوغى متطلعا إلى تحقيق النصر، مؤملاً أن ترفرف رايته خفاقه تلملم ما تفرق من وحده الأمة، وتعيد إليها صواب الرأى ووضوح الرؤية .

لم يقف المسلمون قبل اليوم يحارب بعضهم بعضا، وإنما كانوا يجتمعون لحرب المشركين، ونشر لواء الدين، تملأ قلوبهم الروح المعنوية والإيمان القوى المتين، فكان لهم من أنفسهم وازع أى وازع، قلوبهم تدفعهم ، وعقيدتهم تقودهم ، فلم يكونوا يوم خرجوا لمحاربة الفرس والروم فى حاجة إلى إطالة القول والإطناب فى الخطابة، لأن الدين الجديد وعقيدتهم فى وجوب نشره كان يحفزهم إلى الجهاد ويملأ قلوبهم ثقة فى النصر.

وأما اليوم فهم مدعوون لحرب قوم لا يشركون بالله ولا ينكرون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمدا، بل هم على دينهم وعقيدتهم، ولذلك كان الموقف الجديد في حاجة إلى خطيب يبرر حرب المسلم أخاه المسلم، وقتل العربى بلى قومه العرب، واحتاج قادة الفريقين إلى الخطابة يقوون بها الروح، وكان المتحاربون فى حاجة إلى هذه الروح حتى تشتد سواعدهم فى قتل إخوانهم وذوى قرباهم.

ولكن إذا انظرنا إلى ما بين أيدينا من نتاج لخطب تلك الفترة رأينا كثرة ما ورد من خطب للإمام على تفوق ما ورد لمعاوية، فهل كان علىّ بحاجة لبث الروح والحمية فى قلوب جنوده دون معاوية؟هل كان صف الإمام على من ضعفاء الإرادة وواهنى العزم لم تتمكن من قلوبهم صحة العزيمة والقصد؟ هل كان المسلمون يكرهون ولاية على وقد تحول كرههم إلى نار تحرق وحنق يقتل فلم يكن لمعاوية أن ينفث فى نار مشتعلة ومشاعر متأججة؟

وإذا أردنا تفسيرا لهذا السبب فسنجد عدة تفسيرات تصلح للإجابة على هذا السؤال فقد يرجع السبب إلى أن كثيرا من أثار معاوية وأنصاره قد امتدت إليها يد النسيان والضياع بعد سقوط دولتهم وزوال أمرها، فحين سقطت الدولة لم يحاول أنصارها يوما رفع رؤوسهم ، ولم يحاولوا إرجاعها ، ففقدوا بفقدانها الكثير من آثار خلفائها، وأما العلويون فمع أنهم كانوا يحاربون ويقتلون ويلاقون من الحياة الشدة والعناء، كان لهم فى كل مكان الأنصار والمرجون لدعوتهم، والساعون إلى إقامة خلافتهم ، فكان من الضرورى لهم أن يحفظوا كلام إمامهم وأن يتناقلوا أحاديثه وخطبه.

وقد يكون السبب فى ذلك قلة حاجة معاوية إلى الخطابة بالنسبة لحاجة على إليها فقد كانت الروح المعنوية فى نفوس أهل الشام أقوى وأشد منها فى نفوس أهل العراق لأن معاوية ألقى فى روعهم أنهم إنما قاموا يقتصون لخليفة قتل مظلوما، ومن أحق وأولى بالدفاع عن حق عثمان من معاوية؟

إذن فلا حاجة بمعاوية إلى كثرة الخطابة ، هذا إلى أن أهل الشام كانوا أطوع له من أهل العراق لعلى، فمعاوية وأبوه وأخوه من قوادهم يوم حارب المسلمون فى الشام، هذا بالإضافة إلى أن الشاميين كانوا فى موقف المدافعين عن بلادهم، وهذا مما يقوى فى نفوسهم روح الجهاد ويدفعهم إلى الحرب والقتال.

وقد يرجع السبب فى كثرة خطابة الإمام أن الخلاف كان يمشى إلى قلوب أنصاره وكان المخالفون يبينون رأيهم بالخطابة ، فكان من الضرورى أن يقف بينهم يدعوهم إلى الألفة واجتماع الشمل، هذا إلى أن أصحاب على قد خذلوا خليفتهم وتقاعسوا عن نصرته فاضطر إلى أن يرقى المنابر، وأن يرسل فيهم الصيحة يحرضهم على مناجزة أعدائه وللإمام وأنصاره خطب كثيرة فى هذا الشأن.

على أن معاوية كان يلجأ إلى الخطابة الصامتة، فما كان عليه إلا أن يعلق على المنبر أصابع زوج عثمان التي قطعت فى الدفاع عنه، وقميص عثمان، فيغنيه هذا عن تدبيج القول وإطالة الحديث ، إذ يجد حوله من ينادون : هيا إلى الأخذ بالثأر، هيا إلى الحرب.

وربما تكون تلك العوامل كلها مجتمعه هى السبب فى كثرة خطب على بالقياس إلى خطب معاوية، فلم يكن لعلى بد من أن يخلق فى أنصاره الروح المعنوية، وأن يشعل حماسهم ويشحذ همهم، ويثير الحمية الإسلامية فى نفوسهم، وأن يبرر لهم موقفهم من حرب قومهم وإخوانهم ، فكان يلجأ أحيانا إلى العاطفة الدينية يثيرها ، فيظهر أعداءه فى مظهر المارقين عن الدين، الهادمين لأسسه ومبادئه، الخارجين عن وحدة جماعته.

وأحيانا يثير فيهم الأنانية وبعث روح الغيرة، فيبين لهم سوء المغبة إذا انتصر معاوية عليهم، ويحدثهم عما سوف ينالهم على يديه من الذل

والبيان، وأحسب أن المرء حين يغرس فى نفسه أنه إنما يدافع عن كيانه، يحفظ على نفسه حياته، يدافع عن حياضه ببسالة ويحمى ذماره وآله بقوة، وهو ما يرمى إليه على بخطبه.

وتارة يلجأ إلى ماضى أعدائه ، فيذكرهم به، فيعيد إلى الأذهان سيرتهم الأولى ويتحدث عما كان بينهم وبين الإسلام من خصومه، ثم يأخذ فى بيان ما لعلى وأصحابه من مآثر ومزايا ومناقب، تجعل الموازنة بينه وبين معاوية ضربا من العبث ونوعا من الجدل.

وبيان مآثر على ومزاياه، وماله من مواقف محمودة فى نصرة الدين الوليد من صباه إلى رجولته، ونقائص معاوية والطعن فى أغراضه ومقاصده، وبيان مثالبه ومساوئه، أهم ما يدور حوله خطب العلويين حين يدعون قومهم إلى الحرب والقتال والذب عن وحدة الأمة.

أما معاوية فقد لجأ إلى الناحية الدينية يثيرها فى نفوس قومه ويحفزهم بها إلى الجهاد، ينثر أمامهم حجته الوحيدة التي دفعته إلى الخلاف وشق عصا الطاعة، وهى مقتل عثمان، وإيواء على لقتلته دون تقديمهم لمحاكمة أو الأخذ بثأره، ولذلك كان علىّ – فى نظرهم- ومن معه قوما نكثوا البيعة وسفكوا الدم الحرام فى البلد الحرام.

وقد استغل معاوية شيئا آخر آثار به حفيظه قومه، وبعث الكراهية والحقد فى نفوس أنصاره تجاه على وأصحابه، ذلك أن عليا وصحبه قوم أقبلوا من بلادهم، واعتدوا على حرمة غيرهم فهاجموا الشاميين فى ديارهم ، فليس أمامهم إن أرادوا الحياة خالية من العار إلا أن يقاتلوا ويذبوا عن نسائهم وأبنائهم.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن معاوية وصحبه كانوا يلجأون فى تقوية الروح المعنوية إلى الحديث عن ضعف جيش العراق ، وتفرق كلمته، وعدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

امتثالهم لقائد واحد وإنما لمجموعة من القواد، ولا ريب أن مثل ذلك الحديث يشجع أومه ويغريهم بالثبات ويحفزهم على القتال حتى يتم الانتصار.

أما العلويون فإنهم لم يستغلوا هذه الناحية مما يدل على براعة معاوية العسكرية فى حسن إعداد جيشه، وتقويته واجتماع كلمته على قائد واحد، ورأيه على صعيد واحد، فلم يدع لهم هذه الفرصة، مما جعل على وأنصاره يستغلون ناحية أخرى هى أن معاوية ليس معه من له قدم سابقة فى الإسلام، أما هم فمعهم جل الصحابة والأنصار، فكان أكثرهم تحت راية على، ولكن ذلك كله لم يستطع الوقوف أمام دهاء معاوية وعمرو بن العاص فقد استطاعا بفضل ما أوتياه من الحصافة والمكر والدهاء أن يظهر بقلتهما على كثرة على ومن تبعه من أنصار.

وقد اجتمع للإمام على بن أبى طالب من صفات الكمال وباذخ الشرف مالم يجتمع لغيره من أفذاذ الرجال، فهو ينتسب إلى أطيب الأعراق ، وينحدر من أكرم النسب، كانت حياته وخلافته مليئة بالأحداث العظام، ووقعت فيها جلائل الأمور، فعلى أيام الرسول شارك فى نضال المشركين واليهود، فكان الفارس الذى لا يشق له غبار ، وفى خلافته حدث له ما لم يحدث للخلفاء من قبله، فكان تفرق الكلمة، واختلاف الجماعة، فبات على الهم والأسى، وطوى أضالعه على الخيبة والحسرة، وهو فى كل ما لقى من أحداث، وما صادف من محن وكوارث قد اختبر الناس، وتفطن لمطاوى نفوسهم، فكان العالم المجرب الحكيم، والناقد البصير، بكل ما يعتمل فى النفوس، ويتوارى بين الحنايا والأضلاع ويستطيع من خلال ذلك أن يلاقى كل بحسب ما خبر منه، وعلم من باطنه، وما يغيم به صدره.

كل تلك العوامل متآزرة ، وما صاحبها من صفات داخلية نابعة من شخصيته سواء كانت ذاتية أم خارجية مكتسبة ، مكنت للإمام على من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ربوع البيان، وملكته اعنة "الكلام وألهمته أسمى المعانى وأكرمها، لجرت على لسانه الخطب الرائعة، والرسائل الجامعة والوصايا النافعة.

يقول المسعودى: "والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته اربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة، يوردها على البديهة، تـداول عنـه الناس ذلك قولا وعملا"(١).

وإن كان لكلام عليّ تلك المزية وهذه الخاصية التي ميزته عن غيره من الخطباء فقد كان نسبة ما فى كتاب نهج البلاغة للإمام على مثارا للشك عند الباحثين المتقدمين والمتأخرين.

"وكثير من أرباب الهوى يقولون: إن كثيرا من نهج البلاغـة كـلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضى أبى الحسن وغيره، وهؤلاء أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن المنهج الواضح وركبوا بنيات الطريق ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام.

وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما فى هذا الخاطر من الغلط فـأقول : لا يخلو إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعا منحولاً أو بعضه، **والأول:** باطل بالضرورة، لأنا نعلم بالتواتر صحة اسناد بعضه إلى أمير المـؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدثون - كلهم أوجلهم- والمؤرخون كثيرا منــه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض فى ذلك.

والثانى : يدل على ما قلناه ، لأن من قد آنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفا من علم البيان وصار له ذوق فى هذا الباب، لابد أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصـيل والمولـد، وإذا

---

١ - مروج الذهب لأبى الحسين على بن الحسين المسعودى تحقيق محى الدين عبد الحميد ط دار المعرفة لبنان الجزء الثانى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ص٤٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقف على كراس واحد يتضمن كلاما لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط، فلابد أن يفرق بين الكلامين، ويميز بين الطريقتين، ألا ترى انا مع معرفتنا بالشعر ونقده لو تصفحنا ديوان أبى تمام فوجدنا قد كتب فى أثناء قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبى تمام نفسه وطريقته ومذهبه فى القريض؟ ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحوله إليه لمباينتها لمذهبه فى الشعر؟ وكذلك حذفوا من شعر أبى نواس كثيرا لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا فى ذلك إلا على الذوق الخاص"[1].

ألا ترى أن مجموعة من الخطب كافية لأن يحكم بها على أسلوب صاحبها وطريقته فى بناء خطبته وإقامة الدليل والحجة على ما يريد أن يسوق للناس، فيعرف بذلك الأصيل من الدخيل؟

ألا ترى أن النقاد قد أقاموا تلك المحاكمة أو الموازنة بين ما أنتج من شعر وما طرأ على ديوانه دخيلا من بعض القصائد بعد دراستها ومعرفة طريقة صوغها وصحة ألفاظها وموافقتها لقوانين وقواعد الشعر من عدمه؟

وإذا تأملنا نهج البلاغة للإمام على وجدناه كله ماء واحداً، ونفسا واحداً، وأسلوب واحداً، كالجسم أعضاؤه متناسقة متناسبة لا دخيل عليها ولا تنافر بين أجزائها، بل الكل يؤدى بالتلاحم مع غيره على خروجه فى تلك الصورة الرائعة تجعلنا نهتف من أعماقنا بقدرة صاحبه على الإبداع.

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولا وبعضه صحيحا- كما يقول البعض- لفتحت علينا تلك المقولة باب الشك، والنظر إلى الأقوال بعين

---

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الجيل بيروت ط الأولى الجزء الأول ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ص١٤ وما بعدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاحتياط حتى يثبت عكس ما نخشى أن يكون قد وقع فيها، فلا نظفر بالحلاوة التي تتقاطر منه، بل إننا بهذا نحبس أنفسنا عن الإندماج معه والتأثر بما فيه من آراء وأفكار ومعتقدات.

إن الطعن فى نهج البلاغة لم يأت كالطعن فى بعض القصائد التي وردت فى ديوانه، التي قد لا نوافق على بعض ما جاء فيها ، لخروجه عن المألوف من أخلاق الرجل وقيمه ، وعادات العرب وتقاليدهم، وأخلاق الإسلام ومبادئه ، كما أن كل العرب لم يفطروا على قول الشعر الرائع، وإنما فطر - غالبتهم - على البيان فى القول المنثور ولذلك فالطعن على نهج البلاغة طعن على ما فيه من آيات باهرة فى البلاغة والفصاحة وكان الإمام على ليس فى مقدوره أن يأتى بمثل هذا الكلام، وإنما صنعه فصحاء الشيعة ونسبوه للإمام، الذى يبدو أنهم أفحل منه لغة ، وأعلى أسلوبا، وأسمى معنى ، رأوا فيه العجز والعيى فأرادوا له النصر والتفوق فى ميدان الكلام ، فصنعوا ما صنعوا ونسبوه إليه.

أما وأنهم لا يساوونه فى تلك الناحية فقد بطل الزعم، وسقطت التهمة، فالإمام على من كبار الفصحاء والبلغاء، فما تقول فى رجل أقر له أعداؤه بالفضل ولم يكن فى مكنتهم جحد مناقبه ولا كتمان فضائله، فقد استولى بنوا أمية على سلطان الإسلام فى شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكل حيلة وسعتهم فى إطفاء جليل عمل الإمام، ورائع قوله والتحريض عليه، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا مادحيه، ومنعوا رواية حديث يتضمن له فضلا أو يرفع له ذكرا، فما زاده ما فعلوه إلا رفعة وسموا ، وكان كالمسك كلما ستر انتشر عرفه، وكلما كتم تضوع نشره، ومن ثم وجد بعده من به اقتدى وعلى مثاله ودربه سار واحتذى .

والناظر إلى خطب الإمام على ليبحث عن الغرض الذى دعاه إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلقائها، يدرك أنه لم يكن فيها حريصا فقط على التحريض على القتال، فلم يكن هو كل غرضه من خطبه بل كان من الأغراض أيضا نصح الصحب، وإرشاد المقاتلين إلى ما يجب فعله، كما يفعل القائد قبل الهجوم يوصى جلده ويمنحهم نصائحه، كما فى قوله لابنه محمد ابن الحنفية حين أعطاه الرايـة يوم الجمل:

"تزل الجبال ولا تزل، عض على ناجذك ، أعر الله جمجمتك ، تُدفى الأرض قدمك أرم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه"(١).

وترى من أغراض الخطابة لذلك العهد، الدفاع عن الـرأى، ومقارعـة الحجة بالحجة وتفنيد براهين الخصم، وأظهر مثال لذلك الخطب التـي قالهـا على والخوارج ، فهى كلها مليئة بالحجج والبراهين من الجانبين.

كما كان من أغراض الخطبة الصلح بين المتقاتلين، فلقد سعت الرسـل بين الفريقين تريد حقن الدماء، وكانت الخطابة عماد أحاديثهم - وإن لم يوفق الخطباء إلى أداء مهمتهم- والحق أن الخطابة التي كان يقـوم بهـا سـفراء الزعيمين لم تكن لتدل إلا على أنهما يرغبان فى أن يستخلصا حقهما بالسيف، وأما السفارة فحتى لا يكون ثمة مدعاة للوم أحدهما إذا اضطر إلـى امتشـاق الحسام.

كما كان من أغراض الخطبة أيضا أهم دواعيها، وهى الدعوة والهداية، فإذا طالعت أقواله رأيت الكم الكبير من الخطب التي يدعو فيها الإنسان إلـى التفكير والتدبر، وإعمال العقل، وإشغال الذهن بالبحث فى أسرار الكون مـن خلال حديثه عن بدء خلق الأرض والسموات، وخلق آدم.

---

١ - نهج البلاغة شرح محمد عبده- راجعه على أحمد حمود ط المكتبة العصرية بيروت الجزء الأول ط الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ص٤٠١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهناك الخطب التي يدعو فيها إلى الزهد فى الدنيا، وعدم الطمع فيما فى أيدى الأخرين، وتقريب المرء من ربه ببيان صفات الربوبية، وما ينفرد به عن خلقه، ليدرك المرء أن خالقه يستحق الطاعة، فيقبل على العبادة والامتثال، ويقر بالوحدانية والتفرد.

كذلك عمد فى خطبه إلى بيان أمور الدين، وتفصيل أحكامه، وبيان ما يجب على المسلم الالتزام به والابتعاد عنه، كما لم ينس فى خطبه درجته فى القرب من رسول الله فراح يعدد فضائله، ويذكر محاسنه، ويبين للناس صفاته حتى يلزموها، وأعماله ليداوموا عليها، وما تركه ليحفظوا آثاره ويقتدوا به.

وعلى الجملة فقد كانت أقوال الإمام فى جميع أحواله خطبا، فإذا علمت مدى كثرة الأحداث والمواقف التي عرضت له أثناء فترة ولايته، تيقنت من كثرة الخطب حتى أنه لم يترك مناسبة إلا وأطلق لسانه فيها ، مما جعله من أئمة البلاغة، فقد تيسرت له ثقافة وعقل مدرك، واستعداد فطرى للتأمل، فكانت أقواله ووصاياه ومواعظة وخطبه من أرقى ما عرف العصر الإسلامى.

المبحث الرابع: الدراسة الفنية

١- **الأسلوب:** للبيئة أثر جوهرى فى خلق الشخصية وتنمية الملكة وصقل الوجدان ، وطبع الشعور بطابع الرقة أو الغلظة، وتنشئة الإنسان على نحو من صرامة الطبع أو لينه، أو عمق التفكير أو سطحيته، أليس الإنسان وليد بيئته؟

والبيئة العربية على مر العصور غنية بالناثرين الموهوبين، الذين تهيأت لهم الأسباب لتفوقهم ونجاحهم، هذه الأسباب قد تكون ذاتية تتعلق بالشخص نفسه كموهبته فإذا بها تدفعه وتحثه لأنها من خصاله وطبعه، بالإضافة لما يهيؤه القدر فرصا لانتهابها فيكون الاختلاف بين الأشخاص

بمقدار الأخذ بهذه الفرص والعمل على الانتفاع بها.

ولما كان العرب قد انتهزوا فرصة موهبتهم، فقد اتجهوا إلى باب الأدب شعرا ونثرا، لأنه أبقى على مر العصور من الملك العريض، وأنه سوف يروى ويقرأ يوم ينسى أمرهم ويطوى ذكرهم، فكم من فاتحين وكم من مشعلى ثورات سحب النسيان عليهم أذياله فلم يعرف من أخبارهم شيء.

ولو أنعمت النظر فى أسلوب الإمام على رأيت أثر البيئة واضحا فيه "والناقد المنصف المستنير هو الذى ينظر إلى الشاعر أو الكاتب فى إطاره عصره"(١).

فلا ينبغى أن يوصم أديب بأن أسلوبه صارم قوى يحتاج إلى المعاجم لفك طلاسمه وكشف رموزه، كما لا يتهم أديب بأن أسلوبه سهل واضح لا يحتاج إلى إمعان أو تروى لمعرفة دقائقه وكشف أسراره، وإنما يقال إن نتاج هذا الأديب ابن بيئته، ووليد الحياة التي يحيا، فهو بها يرتبط ، ومنها ينبع ، وعليها قد شب ونما .

وإذا أنعمت النظر فى أسلوب الأدب فى العصر الإسلامي وجدته قد دخل عليه بعض الاختلاف نتيجة الحياة الجديدة، وهى وإن لم يظهر أثرها واضحا فى الأدب كما كان ينتظر لها، فقد طرأ على الأسلوب تغيرات، فناهيك عن القوة والجزالة ، والسلاسة والعذوبة، فكان طبعيا أن يتجاذبا أديب العصر الإسلامى ، فقد جاء نثر هذا العصر سهلا فى أسلوبه، وما ذلك إلا من أثر لغة القرآن وحديث الرسول، الذين نأيا به فى كثير من الأحيان عن الغرابة والوعورة، مع احتفاظه أيضا ببعض سمته الذى كان عليه فى الجاهلية.

---

١ - فصول فى الأدب والنقد والتاريخ على أدهم ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م ص٢٤٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

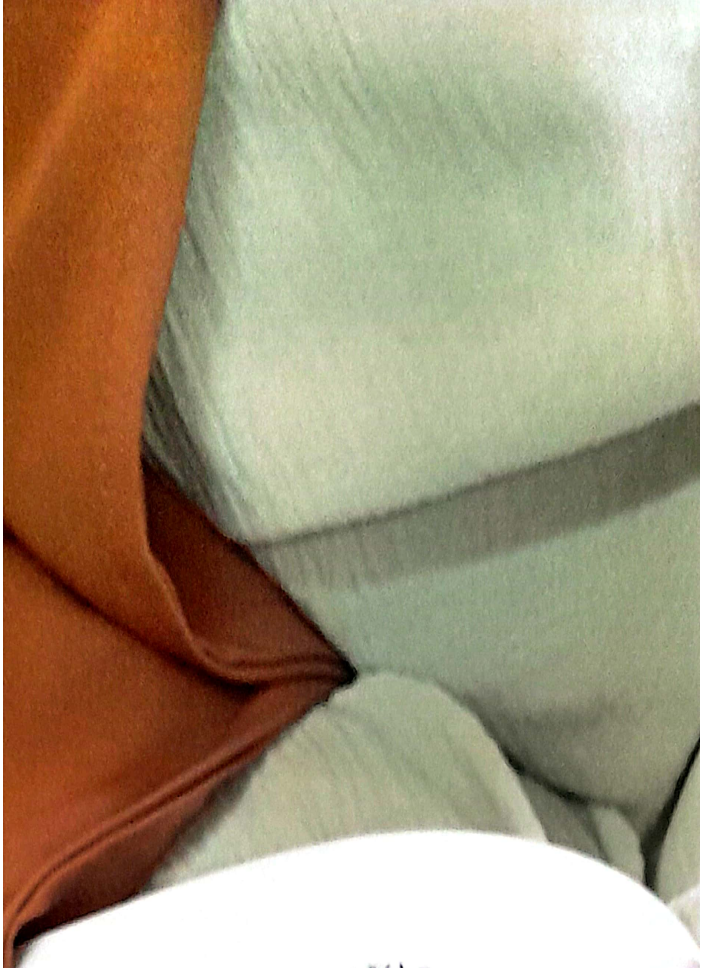

هذا على الرغم من وجود آراء ترى أنه ليس ثمة اختلاف بين المصريين الجاهلى والإسلامى فهناك من يقول:

"وليس بعجيب أن يظل الشعر الإسلامى فى جملته جاهلى الروح، والدولة عربية محضة، والثقافة عربية صقلها الإسلام، والشعراء عرب إلا ثلاثة أو أربعة، والصحراء مقام الأكثرية فيهم، والطبع هو الغالب على شعرهم، وليس بين الحياة الإسلامية إلى عهد هشام وبين الحياة الجاهلية ما يدفع باستحالة الشعر الجاهلى إلى شىء آخر، ولذلك كان الإسلاميون والجاهليون سواء عند النحويين"(١).

إذن فليس هناك فرق- كما يتضح- بين الأدبين، ومن ثم فلا مجال للقول بالمغايرة بين الأسلوبين أو دخول أى جديد عليه، وتلك نظرة من النقد تحجر على الأدب أن يتصل بعالمة أو يتأثر به، مهما كانت درجة التأثر، أو تظهر فيه معالم واقعه، أو يجرى عليه سنة كل جديد يعاصره فى الأخذ عنه، والتفاعل معه، ونقل صورة من ارتباط أدبائه بحياتهم.

إن الحياة الجديدة أملت على الأدباء تعبيرات جديدة ظهرت فى أسلوبهم، واتضحت معالمها فيه، لأنه لو لم يكن كذلك لعاش الأديب بفنه منعزلا عن العالم الذى يعيش، والحياة التي تعج من حوله، فالادعاء بأن الأدب الإسلامى جاهلى الروح لا مجال لتصديقه أو الأخذ به لأننا "نرى أن الاتجاه النقدى بعد الإسلام قد وجه الشعراء توجيها كفيلا ببيان أثر الإسلام فيه، ذلك الأثر الذى لم يكن ضئيلا طالما أدى الشعر رسالته، وسار فى ركب الحياة ومضى يعبر عنها فى غنائيه"(٢).

١- تاريخ النقد الأدبى عند العرب طه أحمد إبراهيم ط دار الحكمة بيروت ص٩٣.

٢- حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام د/ سعيد حسين منصور ط: دار المعارف ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ص١٣٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا نظرنا إلى الإمام على فى أسلوبه، نراه يقول فى إحدى خطبه بعد انتظاره من صفين:

"أحمده استتماما لنعمته، واستسلاما لعزته، واستعصاما من معصيته، واستعنيه فاقه إلى كفايته، إنه لا يضل من هداه ، ولا ينل من عاداه، ولا يفتر من كفاه، فإنه أرجح ما وزن ، وأفضل ما خزن، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ممتحنا إخلاصها، معتقدا مصاصها، نتمسك بها أبدا ما أبقانا، وندخرها لأهوال ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإنسان، ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور والكتاب المسطور، والنور الساطع والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات ، واحتجاجا بالبينات، وتحذيرا بالآيات وتخويفا بالمثلات، والناس فى فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سوارى اليقين، واختلفت النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان، وخذل الإيمان، فانهارت دعائمه، وتنكرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شركة، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامة ، وقام لؤاه فى فتن داستهم بأخفافها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون، حائرون، جاهلون، مفتونون فى خير زاد، وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع بأرض عالمها وجاهلها مكرم"[1].

فالإمام على فى خطبته يصور الواقع، ويصور خصومه بعض أهل هذه الأمة فى موقف الضلال والحيرة والتخبط فى معامى التيه والخسران، وإن كانت الخطبة- من جانب آخر- تدور حول الوعظ والنصح من الإمام

---

١ - نهج البلاغة شرح محمد عبده ط المكتبة العصرية الجزء الأول ص٢٩، ٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى رعيته، حرصا منه على صلاحهم وفلاح أمرهم، وشفقة عليهم من أن يزول مصيرهم إلى مالا يحب أو يشتهون ، فهم عصوا الرحمن، وأطاعوا الشيطان فحملهم إلى مهاوى الضلال والبوار.

وإذا أنعمت النظر إلى هذا الأسلوب فى تلك الخطبة، وجدته سهلا عذبا ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز فى نتاج الأديب رقته، لأثر الحياة والحضارة فى نفسه، ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلب ضعفا وعامية، وأن توشى بألوان من الجزالة فى مواقف خاصة تستدعيها حياة الأديب ونفسيته قبل كل شىء، كما يجب ألا تنقلب الجزالة إغرابا وتعقيدا عند من يعيشون عصر الحضارة والتقدم ، فعلى الجملة ينهم الأسلوب الخطابى بسهولة العبارة ، ووضوح المعنى، لأن فهم المعنى أساس الاقناع والاستمالة، ولا أعنى أن يكون الكلام مبتذلا سوقيا، وشائعا شعبيا، وإنما أريد أن يكون سهلا فى قوة، وساميا فى وضوح وسهولة، يفهمه أنصاف المتعلمين، ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله، ومن الخطأ أن يغرب الخطيب فى أسلوبه، ويتسامى فى تعبيره تساميا يغلق معانيه على السامعين"[1].

وانظر إلى على فى إحدى خطبه التي يتظلم فيها مما لحقه من غبن فى صرف الخلافة عنه بعدما كان المهيأ لها، ثم يشير إلى أسلوب تولى الخلافة حتى وصلت إلى عثمان ، وما انتهى إليه حال المسلمين فى عهده من تسلط أسرته على المسلمين يأكلون أموالهم، ويظلمون خيارهم، ثم ما آل إليه ذلك من ثورة إسلامية عارمة انتهت بمقتل الخليفة، يقول على فى بعض أجزاء تلك الخطبة:

" أما والله لقد تقمصها فلان، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب

---

١ - فن الخطابة د/ محمد احمد الحوفى ط دار النهضة مصر ١٩٩٦م ص١٦٨.

من الرحى ينحدر عنى السيل، ولا يرقى إلى الطير، فسدلت دونهـا ثوبـا، وطويت عنها كشحا، وطفقت أرتاى أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهدم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير"(١).

ويقول فيها أيضا:

"إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال خضمة الإبل نبته الربيع، إلى أن انتكث عليـه فتلـه وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنه، فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع إلى، ينثالون على من كل جانب"(٢).

فهو يشير إلى تبوء أبى بكر مكان الخلافة بعـد الرسـول ، ويشير الإمام من طرف خفى إلى مكانته التي تجعله محط الأنظار، والمنوط باداء المهمة، فهو القريب من مهبط الوحى، وأن ما يصل إلى غيره من فـيض الفضل، فإنما يتدفق فى حوضه ثم ينحدر عن مقامه العالى ، فيصيب منـه من شاء الله، ثم يشير إلى خلافة عثمان، وكيف أدت سياسته إلى ما آل أمره إليه فى النهاية ، حين سلط أسرته على المسلمين وولاهـم معظـم شئون الدولة ، وإمارة كل الإمارات.

فهل يقال عن هذا الإسلوب أن فيه وعورة الجاهلية وخشونتها ؟ هـل عمد الإمام على إلى تلك الألفاظ ليظهر براعته فى التعمية والتضليل ويرشد إلى موهبته فى حفظ المفردات التي تغلق على الفهم؟

إننا لا ننكر أنه قد يمنع دون فهم الأدب الجـاهلى والاسـتمتاع بـه ومعايشته صعوبة أسلوبه، ولكن بالرغم من هذا، فلا ينبغى أن تصرفنا هذه الصعوبة عن هذا الجمال والخلق الفنى ، ومحاولة أديبه إدارة دفـة الأدب

---

١ - نهج البلاغة الجزء الأول ص٣٢.

٢ - السابق ص٣٥.

إلى طرق جديدة وبالفعل استطاع أن يخوض العباب، ويشق طريقا وسط الأمواج المتلاطمة حتى وصل بأدبه إلى شواطىء جديدة وعوالم مستحدثة لم يدرس عليها ملاح قبله، من تخليد لأثار الحياة العربية الأولى وأحداثها وصورها ومظاهر التفكير فيها، ورؤية أصحابها لواقعهم المعاش، ومدى تفاعلهم واندماجهم من عدمه، ومن أجل ذلك فلا يمكننا الاستغناء عن هذا الأدب ونبذه.

فالأمام على فى هذه الخطبة وأمثالها عمد إلى تغليف معناه فى أسلوب يتسم بالقوة والجزالة، فيحتاج القارىء إلى معاودته، وبحث أسراره، ولو بحثنا عن تعليل لتلك الحالة نجد أن الإسلام حين سطع على الجزيرة العربية سناه لم يؤمن به الناس من أول الأمر بل تسربت تعاليمه وأنواره إلى النفوس فآمنوا واهتدوا، ومعنى ذلك أنك ترى أدبا ذا ألفاظ خشنة قوية مستمدة من الحياة التي لا يفصلها عنهم إلا خيط رفيع ، وترى أدبا بدأ ضوء الإسلام بألفاظه ولغته يتسرب إليه فيتشربه، فجاء سهلا عذبا حتى قيل عن لغته أنها اللغة الشعبية، لأنها تخاطب الأمة كلها، أو أن يكون الأدب للعامة والخاصة ، وأن تتحقق فيه مقولة السهل الممتنع، فتكون مفرداته غير منغلقة على الشعب، وليست بالعامية أو السوقية، ذلك أن أدباء الدعوة- لا ريب- قد تأثروا بألفاظ الدين الجديد، وحفظوا قرآنه وحديثه، فاقتبسوا من أسلوبه، وكل مسلم يشاركهم ذلك الفهم والحفظ والاستيعاب، فإذا قال الأديب فلن يكون هذا غريبا على السامع والقارىء وهو يألف ألفاظ هذا الأدب حين يقرأ وسائل أحكامه وقواعده.

وعلى هذا كان الأدب صادقا فى تمثله هاتين الحياتين، فأنت تارة أمام أسلوب جزل قوى، تأثر فيه الأديب الإسلامى بحياته التي أدرك منها شطرا فى العصر الجاهلى، وتارة أخرى فأنت أمام أسلوب معبر عن طبيعة واقعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متلائم مع الواقع الجديد ومتمثل له.

ولعل السبب فى تمثل الأديب الإسلامى بعض سمات وخصائص العصر الجاهلى أنه تجاذبه عاملين قويين ، فكان موزعا بين ما ورث وبين ماجد، فالعامل الموروث يجذبه إلى التعبير بمثل ما عبر به أدباء الجاهلية ، لأنه نشأ على عاداتها ورضع تقاليدها فصارت جزءً من تكوينه الفكرى والفنى، كما كان للإسلام أثر فى محاولتهم تمثل تعبيراته، ومن ثم لم يكن أمام الأديب سبيل أو مفر من أن يحاول التوفيق بين هاتين النزعتين فيفسح المجال لكل رغبة فى التعبير عن نفسها ، وما يعتمل فى كيان صاحبها.

وإذا نظرنا إلى الأسلوب فى ألفاظه وجملة، نراه يتحرى أن تكون الألفاظ مؤدية للغرض بما تحمل من معانى القوة والتأثير.

يقول على:

" أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامهم يوهى الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون فى المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قلتم حيدى حياد، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم أعاليل بأضاليل، وسألتمونى التطويل دفاع عن ذى الدين المطول، لا يمنع الضيم الذليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد، أى دار بعد داركم تمنعون، ومع أى إمام بعدى تقاتلون.. أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ وما طبكم؟"[1].

فالخليفة قد حشد الألفاظ التي تنبىء عما يعتريه من آلام ، وما يقاسى من أحزان نتيجة اقتتال المسلمين وإزهاق أرواحهم، فليس فى المعركة فائز ومهزوم، فالفائز معذب مؤرق يشعر بفداحة الخطب لقتل الأهل والإخوان.

---

١ -- انظر نهج البلاغة الجزء الأول ص٦١ بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويحزن أشد الحزن لما أصبح عليه حال المسلم الذى يتعارض ظاهره مع باطنه ويخفى جوفه مالا يطفح على وجهه، ويتعجب من تلك الحالة التي أصبحوا عليها، فلم يعد يعرف لهم هوية، ولم يعد يستطيع أن يجـدلهم دواء يعالجهم من تلك الحالة المتردية التي أصبحوا عليها.

والألفاظ المنبئة عن حزنه وألمه هى " المجتمعة أبدانهم ، المختلفـة أهواؤهم، أى دار بعد داركم تمنعون، ومع أى إمام بعدى تقاتلون، لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى نصركـم ما بالكم، ما دواؤكم؟ ما طبكم؟".

ومن هنا لا تملك تجاه الألفاظ إلا أن تشارك الإمام فجيعته، وتكتـوى بناره، وينفطر قلبك ألما لما أصاب المسلمين، وإلى تلك الحالة الجديدة التي لم تعهد منهم من قبل.

ويقول الإمام فى استنفار الناس إلى أهل الشام:

" أف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا، وبالذل من العز خلفا، إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول فى سكره، يرتج عليكم حوارى فتعمهـون، فكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون"[1].

فانظر إلى كلمات الإمام التي تعبر عن الحالة التي أصبح عليها جنده من الدعة والانصراف عن نصرة القضية "رضيتم بالحياة الـدنيا، وبالـذل خلفا، تدور أعينكم من الموت، من الذهول فى سكره، فأنتم لا تعقلون".

وكلها مفردات تعبر خير تعبير عما أصاب أنصاره من خـور فـى الإرادة، ووهن فى العزيمة ، وضعف فى الروح، وهذه الألفاظ مع غيرهـا متناغمة متعانقة تكون جملا تنطق بما يريد أن يبثه لجمهور مستعميه.

---

١ - نهج البلاغة الجزء الأول ص٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتبرز فى جمله صدى أصوات موسيقية عذبة، ويبرز هذا الصدى فى اهتمامه بإيقاع التناغم بين اللسان والأذن، ويبرز فيه عامل الذوق والإحساس، مما يزيد الجملة إيضاحا، بالإضافة إلى ما تحدثه من تأثير فى نفس قارئها.

يقول الإمام على، وهو بعض خطبة طويلة خطبها يوم الفطر، ومنها يحمد الله ويذم الدنيا:

"الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلو من نعمته، ولا مأيوس من مغفرته، ولا مستكف عن عبادته، الذى لا تبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة، والدنيا دار منى لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهى حلوة خضراء، وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر، فارتحلو عنها بأحسن ما بحضرتكم من الذاء، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ"[1].

ولعل تلك النغمة الموسيقية قد تسللت إلى الآذان من هذا السجع المتناغم الذى لا كلفة فيه ولا تعمد، ومن اقتراب مخارج الحروف الأخيرة، مما زادها مع الأولى موسيقية ونغمة حلوة جذبت القلب ونبهت الحس.

وما الذى يدفع الإمام أن يتكلف؟ إنه يعمد إلى الموضوع فتتسارع إليه المعانى وتتوارد عليه الخواطر، وتتساقط عليه الألفاظ، فإذا به يختار أعذبها وأجملها وأحسنها فى التعبير عن مراده، والإفصاح عن مكنون صدره، ثم يعمد إلى الصورة الشعرية، فيكسو الأسلوب زيا قشيبا، ويخرجه فى أبهى حلة وزينة.

ويعتمد أسلوب الخطب- أحيانا- عند الإمام على أدوات الاستفهام، وهو يهدف من وراء ذلك إلى التأثير فى سامعه وقارئه، وإيقاظ ذهنه،

---

١ - نهج البلاغة ص٧٤، ٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعث الحيوية فى نفسه، حتى لا تسأم أو يصيبها الملل.

يقول على فى ذم أهل العراق، وفيها يوبخهم على ترك القتال، والنصر يكاد يتم ثم تكذبيهم له:

" لقد بلغنى أنكم تقولون على يكذب ، قاتلكم الله فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا والله أول من آمن به، أم على نبيه؟ فأنا أول من صدقه، كلا والله"(١).

فالاستفهام الأنكارى من الإمام مدعاة لأن يفكر هؤلاء الناس ويبحثون فى أذهانهم عن حقيقة الرجل، والكيفية التي هو عليها منذ صغره حتى ولايته أمر المسلمين، فهو الذى كرم الله وجهه فلم يسجد لغيره، وهو أول من أمن بنبيه، وكم لاقى فى سبيل نصره الدين وكم تكبد من مشقة فى سبيل اعلاء رايته.

ويقول على من خطبة له فى ذم العاصين من أصحابه:

" لله أنتم، أما دين يجمعكم؟ ولا حمية تشحذكم، أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء"(٢).

فتساؤل الإمام دعوة إلى التفكير فى الحقيقة التي آل إليها مصير أصحابه، وكيف أصبحوا على حالة جديدة، جعلت الإمام يتعجب منها ، ومن هذا الأمر الطارىء عليهم، ثم هو يبحث فى ضميرهم عن هذا الشىء الذى يحيل حياتهم ويبدل طبعهم ، ويغير سمتهم من حالة الركود والتردى إلى حالة الصحوة التي يأملها ويرجوها.وهذه الظاهرة الأسلوبية من أقوى الظواهر فى إكساب الخطبة لونا من ألوان الإقناع والإمتاع، ومن أقوى الظواهر فى جذب السامعين إلى الخطيب مهما طال.

---

١ - المرجع السابق الجزء الأول ص٩٠ .

٢ - السابق الجزء الثانى ص٢٣١، ٢٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويلجأ الإمام إلى الجمل القصيرة المتوازنة حين يشتد به الحماس في المواقف التي تتطلب التصميم والإصرار، ويلجأ إلى الجمل الطويلة حين يتطلب الموقف هدوءا في القول، وسكينة في الخطابة، وذلك حين يلجأ إلى سرد الأدلة والبراهين، وهناك ملاحظة تبدو في خطب علي، وتظهر ظهورا واضحا إذا أنت وازنت بين خطبه التي قالها في أول النزاع وآخره، فتجد خطبه التي قالها بعد التحكيم، ويستنفر فيها القوم إلى حرب معاوية ضخمة في ألفاظها، قوية في أسلوبها متينة فخمة، أقوى من تلك الخطب التي قالها في أول النزاع، وكانت خطبه تشتد وتقوى كلما ضعف أمله في نصرة قومه، وزاد تواكلهم وتخاذلهم، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التي قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج أو إلى خطبته التي قالها بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر، أو عند ما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة، أو حينما أغار سفيان بن الغامدي على الأنبار.

ويبدو في تعليل هذه الظاهرة، هو هذا التخاذل الذي بدا من القوم بعد التحكيم، فلقد سئموا القتال، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة، واستسلموا للراحة، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم، فكان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوية الأسر، مليئة بالألفاظ الضخمة التي تثير النفس، وتبعث النخوة، مفعمة بالتحذير والإنذار، لعلها تحي الموات أو تبعث الروح في الجماد.

انظر إلى هذين النموذجين الدالين بوضوح على تلك الحالة من مراعاة مقتضى الحال، التي كانت تجري على لسان الإمام، قولا على السجية.

يقول وقد استبطأ أصحابه إذنه له في القتال في صفين:ـ

" أما قولكم: أكل ذلك كراهة الموت؟ فوالله ما أبالي أدخلت إلى

الموت، أو خرج الموت إلى، وأما قولكم شكا فى أهل الشام، فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى وتعشو إلى ضوئى، وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها"(١).

ثم قارن بين هذه الخطبة وإحدى الخطب التي قالها بعد التحكيم، يقول فيها:

"الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ وآله.

أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة امرئ، ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه وضن الزند بقدحه، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن.

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا فى ضحى الغد"(٢).

٢- **الصورة**: وأما عن الصورة فى الأدب الإسلامى، فإنه مما لا شك فيه أن الأديب يستمد صوره وأخيلته فى نتاجه مما وقعت عليه عينه، وسجلته ذاكرته، وإذا كان الأديب فى العصر الجاهلى قد أخذ صوره من بيئته سواء كانت البادية أم الحضر، فهى صورة منتزعة من البيئة الصحراوية ، فإن الصورة فى العصر الإسلامى قد طرأ عليها بعض التغير

١- نهج البلاغة الجزء الأول ص٨٠، ٨١.

٢- السابق الجزء الأول ص٦٧، ٦٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى المصدر، فحين نزل القرآن ولازمه حديث الرسول موضحا، تأثر به الأدباء وقرأوا صوره، فأثرت فى نفوسهم واعجبوا بجمالها فظهرت واضحة فى أدبهم، فأنت ترى الرسول فى أدبهم كالهلال والسراج والنور والضياء وهو الرحمة المهداة.

على أن الأديب الإسلامى إذا كان قد اعتمد القرآن والحديث أحد مصادر الصورة فإنه لم يغفل الصور والأخيلة التي علقت بذهنه، وتأثر بها فى جاهليته، التي ألفها فظلت علقه بنفسه، فراح يصورها فى أدبه بعد الإسلام.

والتصوير أحد الأصول الهامة فى الأدب، وفيه ينقل الأديب تجربته التي مر بها وعانى فى خلقها ، ثم عن طريق الصورة قام بتزينها مع الاقتراب فى تصويره من الحقيقة ما أمكنه ذلك.

وإذا كان الإمام علىّ أحد الأدباء الإسلاميين المشهود لهم بالروعة اللفظية، والدقة التصويرية، وإذا كانت الألفاظ والجمل تنثال على لسانه انثيالا، فإنك تجد هذا الأسلوب موشحا بالتصوير ومزينا بالجمال، ليخلع عليه زيا قشيبا يسمو بخيال القارىء وفكره.

يقول الإمام على فى بيان صفة الأنبياء، وبيان مكانة سيدنا محمد، والحقيقة التي جاء عليها من إرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور:

" فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءه ، وشهاب سطع نوره وزند برق لمعه"(١).

فالرسول إمام صالح للمأموم المتقى، وهو كالبصر يهدى ، وكالسراج

---

١ - نهج البلاغة الجزء الأول ص١٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضيء وينير وكالشهاب الذى يبرق فى سرعة وقوة فيبدد الظلام والأوهام.

وقد يرى البعض فى تشبيه الرسول بالسراج أو المصباح أنه مما يعمد إليه كل الأدباء، فهى صورة متبذلة، كثيرة الاستخدام فى أدبهم، كثيرة الجريان على ألسنتهم تستدعيها الذاكرة إذا عمد الأديب إلى صور التشبيه، فتأتى تهرول حتى تكون أسبق من غيرها.

وقد يكون هذا صحيحا إذا نظرنا إلى تلك الصورة برؤيتنا، دون أن ننظر إليها فى إطار رؤية الأديب نفسه للعصر والحياة التي يحيون، فالبيئة البدوية تعج فى ظلام دامس بعد أن تغيب عنهم شمس النهار، فتكون حاجة البدوى إلى السراج والضياء معادل لحاجته إليهما فى نهاره، فإذا وجدت هذه المصابيح المنيرة الهادية، فحدث عن فرحة البدوى بها فهى تعدل عنده أثمن الأشياء وأغلاها على نفسه.

وترى الإمام فى صورة يخالف ما تعارف عليه البلاغيون، حين يحذف المشبة به من الصورة، مع أساسية ذكره وحذف سائر أركان التشبيه، يقول فى خطبه يذكر فيها آل محمد ﷺ :

" هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن حكم منطقهم"(١).

"فهم" بعلمهم ومعرفتهم المشبه، وعيش العلم وموت الجهل وجه الشبه، فهم يشبهون شيئا يكون أداة للإحياء والموت ، فما قصد الإمام من هذا الحذف الغير متعارف؟ هل حذفه ليضع كل قارىء مشبها به يتوافق مع الوجه من عنده يراه ملائما من وجهه نظره ويتفق مع رؤيته وإحساسه؟ هل أخفى المشبه به لبيان جليل عمل هؤلاء الأهل، وأهميتهم بالنسبة للحياة التي يحيون فيها ، حتى أنه لم يقع له على مثل أو شبيه فهو فى حيره من أمره؟

---

١ - نهج البلاغة الجزء الثانى ص ٣١١.

إن مغزى الإمام من وراء هذه المخالفة بيان الروعة وخلب العقل وإيقاظ الروح، فكان أن عمد إلى حذف ما تكون فيه الصفة متحققة، كما لو ذكر المشبه به بمعنى أن الصفة فيه أقوى وأوضح من المشبه، فكان الحذف دليلا على أنه ليس هناك مشبها به يعدل مكانة وحسن عمل هؤلاء الأهل ليقارنه به .

على أن الإمام قد يلجأ إلى صور مقذعه تؤثر فى النفس، وتحرك ساكنها، وتفضح داخلها ، يقول فى ذم أهل العراق يوبخهم على ترك القتال، والنصر يكاد يتم له:

"أما بعد يا أهل العراق، فإنما أنتم كالمرأة الحامل، حملت فلما أتمت أمصلت، ومات قيمها وطال تأيمها"(١).

فهو يشبهون المرأة الحامل التي مات حملها قبل ولادته، فما تأثير هذا التشبيه فى نفس العربى؟

إن العربى تأخذه العزة، وتفور مشاعره، وتنتفخ أوداجه، وتضطرب أعصابه إذا شبه بالمرأة ، فما بالنا بالمرأة الحامل؟

إن الإمام ليزيد من السخرية منهم بإضافة شىء فى مكان بارز من الصورة، وهو تكوير البطن بالحمل، فما أشدها من صورة مؤلمة فى النفس، فتلك ما لم يكن يرضاها العربى مثلبة ونقيصه فى حقه، وإن دلت على مكان آخر على ضيق الإمام وضجره، فكان أن لجأ إلى تلك الصورة الجاهلية التي كانت تستخدم بين القبائل المتناحرة، فهى رمز دل به على سخطته التي تغلى وتمور بالغيظ من هؤلاء الذين خذلوه.

إن الجمال والحسن فى الصورة عند الإمام يأتى على السجية دون

---

(١) المرجع السابق الجزء الأول ص٩٠ .

تكلف، فتراه يقول عن بعض أصحابه، وهو عمر بن الخطاب:

"ذهب نقى الثوب ، قليل العيب، أصاب خيرها وسبق شرها"(١).

فالتضاد بين الخير والشر يظهر شخصية الخليفة الثانى عمر، فهو معنى دائما فى معركة السباق بين الخير والشر، أن يتابع الخير، ويجرى وراءه بكل ما أوتى من سرعة.

وتراه يقول فى ذم أهل البصرة:

"كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة"(٢).

فجند المرأة المقصود بها السيدة عائشة رضى الله عنها، مما يوحى بأن أتباع البهيمة أيضا مقصود بها السيدة عائشة ، وهذا هو المعنى الأول القريب الذى قد يتبادر إلى ذهن القارىء من مجاورة الجملة الأولى، لكن المعنى البعيد المقصود هو أن البهيمة هى الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة.

وكذلك إذا نظرت فى تلك الصور الفنية وجدت الإمام يزاوج بين الأخبار والإنشاء حتى لا يكون أسلوبه على وتيره واحدة فيمل، وحتى يجدد نشاط السامعين بهذه المغايرة ويصور فيه دقه أحاسيسه ومشاعره، فإن المعانى المتنوعة والانفعالات المختلفة فى حاجة إلى أساليب تفصح عنها.

وقد يظن البعض أن السجع فى خطب الإمام جاء متكلفا، ليعالج جانب الموسيقى التي يمتاز بها الشعر، وتجعل الناس تلهج به، وتجرى وراء شعرائه، وتغدق عليهم العطايا، وحتى يظهر به براعته وقدرته وتفوقه، ونستطيع أن نقول : إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئا عارضا، إذ كان الرسول لا يسجع فى خطابته، وكان ينفر منها حين يلهج به أحد

---

١ - نهج البلاغة الجزء الأول ص٣٠٤ .

٢ - السابق الجزء الأول ص ٤١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محدثه كراهية التشبه بالكهان فى سجعهم، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة.

فخطب الإمام على تراها تخلو من السجع إلا ما جاء عفوا، غير أنه مع إهمال السجع المتكلف لم يهمل جزالة اللفظ ورصانته، فكان يحرص على أن يصوغ كلامه صياغة رائعة.

وترى الإمام ونتيجة تشرب روحه لألفاظ القرآن وحديث الرسول قد أخذ يستشهد بهما كثيرا فى معظم الخطب، دلالة على ما يريد أن يثبت ويؤصل فى نفس سامعه.

وفى النهاية تقول:

إن الخطب على عهد الإمام على تؤرخ لنا الحالة السياسية، وتسجل أهم ما كان فى فترة خلافته، وفضلا عن ذلك تستطيع إذا أنت تتبعت الخطب أن تلمس الحوادث التي قيلت فيها لمسا، وهى تكشف لك فى صراحة نفسية الإمام، وتبين الأدوار التي مرت فيها أماله من النهوض والتفاؤل فى أول الأمر ، إلى اليأس والقنوط فى آخره، كما أنها تكشف أيضا نفسية قومه، وتضعها أمامك فى صورة واضحة.

إن المؤرخ ليجد فى هذه الخطب معينا لا ينضب، يساعد على فهم نفسيات المتقاتلين ليدرك النتائج التي وصلت إليها الحرب، وكيف كانت طبيعية لابد من حدوثها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

ومن أبرز النتائج التي ظهرت فى **الفصل الأول**: الشعر وفى **المبحث الأول**: ما وجه إليه فيه من نقد، فيه لم أتحزب ضد خصوم الإمام فى شعره من تناولوا نتاجه، وانهالوا عليه بالتجريح والتمزيق، فلا مجال فى ميدان الدراسات إلى المحاباة والتعصب إذا كان النقد موضوعيا ومدعوما بالأمثلة الدالة من نتاج الأديب ، أما إذا كان أحكاما تعميمية ينظر الناقد فى عمل الأديب ويحكم عليه، وينسحب الحكم على الكل لا على الجزء الذى نظر فيه وعالجه، فإن النقد يكون غير موضوعى، ويمكن الرد عليه، وهنا لا يتهم الرد بأنه من قبيل المجاملة أو عبادة البطل، وهو الوقوع فى هوى وغرام شخصية البحث فأدافع عنها دائما، فهناك هنات وسقطات جاء عليها شعره، ولكنها لا تقلل من قيمته، ولا تغض من قدره ومكانته.

وفى **المبحث الثانى**: تعبيره عن ذاته وعصره، كان تأكيدا على نسبة شعر الإمام إليه، فإذا كان شعرك تعبير عن عصرك وعن نفسك، فهو دليل على أنه ينبع من داخلك فيظهر فيه ما تأثرت به نفسك لا نفس الآخرين الذين إذا انتحلوا وأضافوا إلى الشاعر ما لم يصدر عن مشاعره ويشرح ته وإحساسه فلن يعبروا عن نفسه وعصره بمثل رؤيته، عندها يظهر خلاف ويتضح التباين.

ومن أبرزت النتائج التي ظهرت فى **الفصل الثانى** فى الحديث عن وفى **المبحث الأول**: الخطابة قبل الإسلام :

<u>أولا</u>: أن القصيدة كانت اللون الذى اتجه إليه الشعراء، يظهرون فيه هم ومقدرتهم على التطويل، ويبينون مقدرتهم على التعبير فى دفقة ية تستوعب دفقات من التعبير، ولكن لما آلت إلى التبذل والترخص يل الحصول على المال والهبات، اتجهوا إلى الخطبة، فاستوعبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فنونهم، وبثوا فيها نتاج عواطفهم ومشاعرهم ورؤياهم وأرائهم .

ثانيا: ومن ثم ونتيجة لهذا فلم يكن مجالها ابتكار أو تجويد، ترتيب على ذلك مجيئها على سمات، وتميزها بميزات، نبعت مرتبطة بحالتها الأولى ، شأن كل وليد يوضع يرسلها صاحبها لتعبر عن حاجة ألمت به، ولحظة شعورية خالجت نفسه، ففاضت بها أحاسيسه ومشاعره، واستدعى من مخزونه الثقافى والإبداعى ما يلتقى بهذه الأحاسيس لتخرج صورا مقروءة ومحسوسة، تصادف مشاعرا متأججة أو نفوسا مكلومة، فتؤثر فيها وتخالطها وتعبر عنها وعن دخيلته.

وفى مبحث أثر الإسلام فى الخطابة: نجد أن الخطبة قد تغيرت فتطورت، وتغير سمتها وتبدل طبعها عن خطابة العصر السابق نتيجة عوامل ومؤثرات جديدة، لكن هذا لا يعنى الانفصام والانفصال الحاد للعصرين، فإذا كان كل فن ناشىء يوضع ليرتفع على أساسه الفن المكتمل الناضج، فإذا وصل إلى تلك المرحلة رأى أصحابه عدم العودة مرة ثانية إلى الصورة الناشئة، فهذه الرؤية لا ترى أهمية أن تتواصل الحضارات، وأن تختلط الأفكار والنظريات، فيؤدى إلى هدم الفن وانهيار أساسه.

وفى مبحث الدراسة الموضوعية ظهر شيئان: الأول: كثرة الخطب التي وردت على لسان الإمام على مقارنة بالخطب التي قالها معاوية، وترى لذلك أسبابا كثيرة يجوز اعتمادها كل على حده، ويجوز جمعها كلها سببا وتعليلا، فقد يكون السبب حرص أنصار على بعد وفاته على حفظ مقولات إمامهم، وجعل قلوبهم وعقولهم وعاء حافظا وجامعا لها، بيد أن الأمويين لم يكونوا حريصين على ذلك ، ومن ثم ذهبت معظم آثارهم وكلام قوادهم وحكامهم، وقد يكون السبب إلقاء معاوية فى روع أهل الشام أنهم يقتصون لخليفة قتل مظلوما، ولم يكن هناك من يحاول الأخذ بثاره، هذا إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ن أهل الشام كانوا فى موضع المدافعين، وكان على وأنصاره فى موضع
لمهاجمين، وقد يكون الخلاف الذى سرى بين أنصار على فى مقابل اتحاد
صف وكلمة جند الشام، ومن ثم كان علىّ فى حاجة إلى تكرار القول
والإعادة بعثا للحمية، وحتى يتوهم صدق كلامه فى قتال المسلم أخيه
لمسلم.

الثانى: أن هذا الخلاف الدائر حول حقيقة نسبة هذه الخطب إلى الإمام
على، الكل يدلو برأيه ويوضح هدفه، يتضح منها صحة نسبة هذا الكلام
إليه، فما الذى يمنع نسبته ؟ فليس الكلام بأرقى أو أعلى أو أسمى حتى
ينأبى على الإمام ويتعذر عليه أن يقول مثله إذ أننا لو فتحنا باب الشك فى
هذا الكلام، لسرى فى أنفسنا باب الحيطة والريب والحذر عند التعامل مع
كل التراث وفى شتى الميادين والمجالات .

أما فى الدراسة الفنية ، فقد غلب على تلك الخطب الصدق فى تصويره
ع المجتمع، وما كانت عليه الحياة أبان تلك الفترة، مما يعنى هذا أهمية أن
ين الناقد إلى عمق العلاقة التي تربط الأديب بمجتمعه، وأن ما يصدر عنه
بداعات وارهاصات لا يجب أن ينظر إليها بعيدا عن محيط مجتمعه أو فى
من تأثره بالبيئة التي استقى منها مادته وتأثر بها فى أعماله.

وظهر من تلك الخطب أيضا أن هناك رابطا بين طابع الإمام وبين
ه، فترى الأفكار المعبرة عن رغبة المبدع والمتلقى، وقد اختار لها
العربية الفصيحة المتناغمة مع الفكرة ، والقريبة فى المفردات منها،
ان التعانق بين الفكرة والأسلوب، فلا مندوحة من استقرارها فى ذهن
ء ، وإفادته وإثراء وجدانه.

ما كان أسلوب كل عصر نابعا من شخصية أصحابه، ومعبرا عن
ما يتناولون وما يتأثرون به من مؤثرات خارجية، فكان من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبعى أن يتأثر الأدباء بما ورثوا، هذا على الرغم من إدراكهم لعصور مغايرة، فترى التغاير فى القول نابعا من التغاير فى المعايشة .

وأما الصورة : فقد جرى عليها ما جرى على الأسلوب ، فترها منتزعة من واقعها وهى مظهر من مظاهر اختلاف الحياة فى كل عصر، فلو تتبعت تطورها واختلافها أدركت حقيقة اختلاف الحياة وتطورها، وإن كانت من جانب أخر صورة من صور التأثر والتأثير، ومظهرا من مظاهر التتابع والتسلسل.

المصادر والمراجع

١- الأدب فى عصر النبوة والراشدين د/ صلاح الدين الهادى ط مكتبة الخانجى ط ٣ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢- البيان والتبين للجاحظ ط دار الكتب العلمية بيروت الجزء الأول .

٣- تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ط دار المعارف ط العشرون ١٩٧٧م.

٤- تاريخ النقد الأدبى عند العرب طه أحمد إبراهيم ط دار الحكمة بيروت .

٥- حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام د/ سعيد حسين منصور - ط دار المعارف ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٦- الخطابة أصولها وتاريخها فى أزهى عصورها عند العرب محمد أبو زهره - ط دار الفكر العربى ط الثانية ١٩٨٠م.

٧- ديوان حسان بن ثابت شرحه محمد العنانى ط مطبعة السعادة ١٣٣١هـ .

٨- ديوان كعب بن مالك دراسة وتحقيق سامعى مكى الغانى ط مكتبة النهضة بغداد ط الأولى ١٣٨٦هـ/ ١٩٩٦م.

٩- شرح ديوان الإمام على تحقيق د/رحاب خضر عكارى ط دار الفكر العربى ط الخامسة ٢٠٠٣م.

١٠- شرح نهج البلاغة لابن أبى حديد، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الجيل -بيروت، ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١١- صبح الأعشى لأحمد بن على القلقشندى، شرحه/ محمد حسين شمس الدين ، ط دار الكتب العلمية - بيروت- ط الأولى الجزء الأول ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٢- فصول فى الأدب والنقد والتاريخ على أدهم - ط: الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٣- فن الخطابة د/ محمد أحمد الحوفى ط: دار نهضة مصر ١٩٩٦م

١٤- مروج الذهب لأبى الحسين على بن الحسين المسعودى- تحقيق/محى الدين عبد الحميد، ط: دار المعرفة لبنان الجزء الثانى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٥- نهج البلاغة شرح محمد عبده راجعه على أحمد حمود ، ط: المكتبة العصرية - بيروت- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٦- الهجاء والهجاءون د/ محمد حسين الناشر مكتبة الآداب ، ١٩٤٧م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner